الرحلة العلمية وقيمها التربوية

د. محمــود قمــبر
أستاذ ورئيس قسم أصول التربية
بجامعة قطـر

الرحلة العلمية وقيمها التربوية

د. محمـــود قمـــبر
أستاذ ورئيس قسم أصول التربية
بجامعـة قطـر

محتويات الدراسـة

الرحلة مسلك ثقافي قديم ١٤٥
الرحلة في الإسلام ١٤٦
أزمـان الرحلة ١٤٧
سن الرحلة : صغار ، وشباب ، وكهول ١٥١
مدد الرحلة ١٥٨
الرحلة للرجال ١٥٩
متطلبات الرحلة ١٦٠
أ - استعداد كامل للتعلم ١٦١
(١) قدرة عقلية جيدة ١٦٢
(٢) ميل قوى وشهوة دافعة ١٦٢
(٣) جلد وتحمل ١٦٣
(٤) تأمين الكفاية ١٦٤

(٥) جـد واجتهاد ١٦٦
(٦) تفرغ تـام للعلم ١٦٧
ب - اختيار الأسـتاذ ١٦٨
الأساتذة الرحلة ١٧١
تسهيلات الرحلة ١٧٣
١ - شبكة طرق مسلوكة ١٧٣
٢ - أريحية مجتمع كريم ١٧٤
٣ - حفاوة أساتذة مخلصين ١٧٥
القيم التربوية للرحلة ١٧٦
١ - اكتساب لغة اصطلاحية ١٧٧
٢ - التكوين العلمي ١٧٨
٣ - تلاقح الخبرات ١٨١
٤ - تدعيم الوحدة الثقافية ١٨٢
٥ - نشر الأفكار الجديدة ١٨٣
٦ - الرحلة تكريس للأهلية ١٨٤
٧ - الرحلة تنمية علمية مستمرة ١٨٥
٨ - الرحلة سياحة ثقافية ١٨٦
هل انتهت الرحلة ؟ ١٨٧
المراجع والتعليقات الهامشية ١٨٩

الرحلة مسلك ثقافي قديم :

الرحلة في طلب العلم ظاهرة قديمة ، نشأت بنشأة الحضارات الكبيرة التي تفاعلت سلْماً وحرباً ، وتبادلت فيما بينها عوامل التأثير والتأثر . فكل حضارة لاحقة تأخذ من أصول وروافد حضارية سابقة . هكذا قامت الحضارة الرومانية على أسس رسختها من قبل الحضارة الأترورية والتي بلغت ذروة مجدها بجنوب إيطاليا في القرن السادس قبل الميلاد(١) .

كما ورثت الحضارة الإغريقية ميراث الحضارات الإيجية التي قامت في بحر إيجة ، وكانت من أهم مراكزها كريت وطروادة(٢) . وكريت كانت في موقع التأثر المادي المباشر بحضارة مصر ، حيث كانت هجرات المصريين إليها مستمرة لا تنقطع . وكانوا يحملون معهم علومهم وفنونهم وآدابهم . وكذلك كانت فينيقية التي أخذت عن مصر استعمال النحاس والكتابة والحروف الهجائية المصرية(٣) .

وعلى نحو مماثل عرف الفرس كيف يدمجون في حضارتهم ما اقتبسوه من الحضارات الشرقية القديمة التي ازدهرت في بابل وآشور ومصر(٤) .

وكان العلماء هم الواسطة البشرية في صنع الحضارة ونقلها وتطويرها ، ومن ثم كانوا منذ زمن بعيد ، وبرغم ظروف الاتصال الصعبة التي عانوا منها ، آخذين بمسلك الرحلة كسبيل للتعلم والتثقيف ، وهكذا تواصلت الحضارات في بيئات وعصور مختلفة .

لقد رحل أفلاطون إلى مصر ، واستلهم منها نموذج دولته التي كان يحلم بها . كما رحل إليها كذلك فيثاغورس وحمل معه منها مبادئ الهندسة وفن بناء الأهرامات وهندسة السدود والأقنية لجلب الماء ، وغير ذلك كثير(٥) . يقول أبو الحسن العامري : « نقل فيثاغورس من مصر العلوم الثلاثة : علم الهندسة وعلم الطبائع وعلم الدين إلى بلاد اليونان »(٦) ، كما ذكر ابن النديم في كتابه الفهرست قول ابن المقفع : « قرأت في بعض التواريخ القديمة : لم يكن

اليونانيون يعرفون الخط القديم حتى ورد رجلان من مصر. . ومعهما ستة عشر حرفاً فكتب بها اليونانيون » (كما استنبطت أحرف أخرى كتب بها فيما بعد)(٧) .

وقد شهد أرسطو بصدق هذه الحقيقة التاريخية ، وهو يتكلم عن سياسة الدولة في نظمها وقوانينها ، فقال : « كل شيء في هذا الصدد قديم جداً . ومصر شاهد على إثباته ، فلا أحد يجادل في قدمها السحيق . وفي كل الأزمان كان لها قوانين ونظام سياسي . وعلينا أن نتأثر سابقينا في كل ما أحسنوه من عمل ، ولا نفكر في الإبداع إلا حيث يتركون لنا نقصاً نستدركه »(٨) .

وزادت حركة الاتصال الثقافي اليوناني المصري بقيام الإسكندرية والتي أصبحت مدينة يونانية في أرض مصرية ، وعرفت مكتبتها الشهيرة كيف تغني العلم في ربوع العالم بأسره ، وكانت رحلات العلماء إليها من كل صوب متواصلة متعاقبة .

وفي الجاهلية قام نفر من المتعلمين في الجزيرة العربية برحلات علمية إلى المدن الثقافية بالخارج . فسلمان الفارسي وقد تعلم صغيراً في كتاب فارسي « رحل - كما يقول ابن سعد - في طلب العلم »(٩) .

الرحلة في الاسلام :

جاء الإسلام بدين حضاري يقوم على العلم ويمشي به(١٠) . وهكذا أصبح العلم في عرف المسلمين فريضة : طلبه عبادة ، والبحث عنه جهاد . ولم يقتصر العلم على التفقه في الدين وإنما اتسع ليشمل كل علم تنهض به حياة المسلمين ، ومن ثم قالوا : « كل العلم يقوم به الدين »(١١) ولأن العلم لم تحتكره أمة من الأمم ، وإنما هو من مواهب العبقريات البشرية التي أنتجت حضارات زاهية في جنبات العالم ، فإن المسلمين كلفوا بالسعي إليه وبالرحلة في طلبه ، وتبعاً لنوعية الغاية التي يرحل من أجلها المسلم فقد أصبحت الرحلة أمراً

واجباً أو مستحباً(١٢) ، وهي في كل الأحوال مباركة ، كل خطوة في سبيلها مربوطة بأجرها عند الله(١٣) . ولقد ردد المسلمون حديثاً موضوعاً لكنه يعبر عن إيمانهم بقيم العلم والتضحية في سبيله : « يا علي اتخذ لك نعلين من حديد وأفنهما في طلب العلم »(١٤) . والنعل من حديد يتطلبه طول السعي وراء العلم حتى لو كان في الصين ، وطلب الحكمة حتى لو كانت في أقاصي الأرض وديار الكافرين(١٥) .

أزمان الرحلة :

بدأت الرحلة في أيام الإسلام الأولى والرسول حيٌّ بين أظهر الناس ، فقد كانت تأتيه الجماعات والأفراد من الذين أسلموا للتفقه في الدين ، وقد انتصب (ﷺ) معلماً زكاه ربه بقوله : « هو الذي بعث في الأميين رسول منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » . كان الأعرابي الجلف يأتي الرسول بكل خشونة البداوة يجلس بين يديه ويجثو على ركبتيه ، ويقول للنبي : « يا رسول الله إني أعرابي جاف فعلمني »(١٦) .

ولم ينتظر الرسول طويلاً وهو يستقبل المتفقهين من كل مكان ، فقد عجل (ﷺ) بتربية نفر من أصحابه القراء وأرسلهم إلى الأمصار لتفقيه الناس في الدين(١٧) . وسار على نهجه الخلفاء الراشدون ، فأوفدوا إلى الأقاليم عدداً من القراء . وكان عمر بن الخطاب يأمر الناس في بلادهم أن يقابلوا مبعوثيه من القراء أيام الجمعة بالمساجد ليأخذوا عنهم أحكام الدين(١٨) . وهكذا أصبحت عواصم الأقاليم المفتوحة مزارات علمية يقبل عليها المسلمون الجدد طالبين للقرآن والحديث والفقه واللغة . قال قيس بن عباد من رجال العصر الإسلامي الأول : « دخلت المدينة ألتمس العلم والشرف »(١٩) .

وأعقب القـراء الفقهاء الذين انتشروا في المدن ، وكانت لهم في المساجد حلقات تعليمية ويأيتهم الناس من داخل المدن ومن خارجها سائلين ومتعلمين . وكـان الأئمـة الأربعـة على رأس هؤلاء الفقهاء الذين شدت إليهم الرحال ، وضربت إليهم آباط الإبل سعياً في طلب العلم الذي اشتهروا به وأصبحوا فيه أئمـة متبوعين . وهكذا أصبحت المدينة مع مالك ، والكوفة مع أبي حنيفة ، والفسـطاط مع الشافعي ، وبغداد مع ابن حنبل ، مدنا علمية ودينية تغزوها أفواج الرحالة من المسلمين .

كان هذا عند أهل السنة ، ومثله كان عند الشيعة حيث أصبحت العتبات المقدسة ومراكز العلم في النجف وكربلاء والقاهرة الفاطمية وقم وحلب ومصياف والحلة وجبل عامل بيئات علمية تجذب طلبة العلم من كل مكان ، نظراً لشهرة العلماء المقمين بها .

ولم تقتصر الرحلة على مجرد التفقه لغرض ديني يستهدف تصحيح العقيدة ، وحسن العبادة ، وترشيد السلوك ، ويستوي فيها العامة والخاصة ، وإنما امتدت لتشمـل أفـراداً متعلمـين في مجالات مختلفـة : دينية ولغوية وطبيعية وغيرها ، يرحلون إلى شيوخ أعلام يأخذون عنهم العلم والخبرة ، كل في مجال تخصصه ولغرض علمي أو ثقافي أو مهني ، ومن هنا تأخذ الرحلة مفهومها الخاص الذي نعني به في هذه الدراسة .

والرحلة بهذا المفهوم بدأت في زمن مبكر طلبا للحديث ، فالقرآن قد كتب وجمع في مصحف واحد أخذ به الخليفة عثمان واستنسخه المسلمون منتشرين في كل مكان . كما أن الفقه كان كذلك قد تحددت أحكامه ، وهضمه الناس ، ووجد في كل تجمع أو محلة فقيه أو أكثر يؤم الناس في الصلاة ويقرئهم القرآن ويفتيهم في الدين . لكن الحديث لم يكن قد جمع وكتب بعد ، وإنما حفظ في الصدور ، وتفرق به الحافظون ورواته ، وفني منهم الكثير ، وكان لابد من الرحلة

إلى من وجـد منهم لأخذ ما عندهم من حديث بقصد جمعه وتدوينه وتصحيح سنده أو متنه . كان الشافعي يقول لأحمد بن حنبل : « يا أبا عبد الله أنت أعلم بالحديث مني ، فإذا صح الحديث فأعلمني حتى أذهب إليه شامياً كان أو كوفياً أو بصرياً »(٢٠) .

وانتشر الـرحـالـة في هذا المجـال العلمي الـديني ، ولقب أصحـابـه بالسـائحين(٢١) . ومن أوائل من رحلوا للحديث بصفة خاصة ولعلوم الدين بصفة عامة :

- سعيد بن المسيب م/٩٤هـ ، قال عن نفسـه « إن كنت لأسـير في طلب الحديث الواحد مسيرة الأيام والليالي (٢٢) .
- بسر بن عبيد الله ، قال كسابقه قولا ماثلاً : « إن كان ليبلغني الحديث في المصر فأرحل فيه مسيرة الأيام »(٢٣) .
- جابر بن عبد الله الأنصاري ، رحل إلى أنس بن عبد الله مسيرة شهر في طلب حديث واحد .
- عتبة بن الحارث رحل من مكة إلى المدينة في مسألة واحدة(٢٤) .
- مسروق بن الأجدع ، م/٦٣هـ ، رحل من الكوفة إلى البصرة في آية ، فسأل عن الذي يفسرها ، فأخبر أنه بالشام ، فتجهز إلى الشام حتى سأل عنها . قال عنه الشعبي (عامر بن شراحيل) م/١٠٣هـ : « ما رأيت أحداً أطلب للعلم في الآفاق من مسروق »(٢٥) .
- عكرمة مولى ابن عباس ، م/١٠٧هـ ، ويعد من أوعية العلم ، كان من الرحالين الجوالين ، قال : « طلبت العلم أربعين سنة »(٢٦) .
- مكحول ، م/١١٣هـ ، قال : طفت الأرض كلها في طلب العلم »(٢٧) . والأرض كلها التي تكلم عنها كانت تمثل العالم الإسلامي المطروق في عصره .

- وكـانت أول رحلة احتفظ بها الأثـر بشكـل تاريخي هي رحلة الشـافعي ، م/٢٠٤هـ طلبا للعلم ، حيث رحل إلى العراق والحجاز ، ثم استقر به المقام في مصر ليكون معلما للسائلين الراحلين إليه .

وأخـذت الـرحلة العلمية تنمـو وتنتشر طوال القـرنين الثالث والرابع من الهجـرة . ففي هذين القـرنين كانت العلوم الدينية واللغوية والفلسفية قد تم تأسيسها ، وصنف فيها على الابتداء ، وأصبح لها شيوخ متخصصون يمثلون مدارس فكرية ومذاهب تعليمية ، ومن ثم كانت تشد إليهم الرحال في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية .

ومع تكاثر العلماء والمجالس التعليمية ورواج المخطوطات في معظم الديار الإسـلامية ، قل شأن الـرحلة . يذكر المقرى عن جده ، نقلا عن الآبلى أن « التأليف نسخ الرحلة التي هي أصل جمع العلم ، فكان الرجل ينفق فيها المال الكثير ، وقد لا يحصل من العلم إلا النزر اليسير ، لأن عنايته على قدر مشقته في طلبه ، ثم صار يشتري أكبر ديوان بأبخس ثمن ، فلا يقع منه أكثر من موقع ما عوض عنه ، فلم يزل الأمر كذلك حتى نسى الأول بالآخر ، وأفضى الأمر إلى ما يسخر منه الساخر »(٢٨) .

ومما يؤكد ذلك ان ابن منده ، م/٣٩٥هـ ، كان رحالة مشهوراً ، طاف كما يقول « الشرق والغرب مرتين » ويؤرخ له كواحد من الأعلام الذين أنهوا عصور الرحلة ، فقد « كان ختام الرحالين »(٢٩) .

وأراد أبـو العلاء الهمذاني ، م/٥٦٩هـ لما « قلت رغبة الخلق في تحصيل العلم والرحلة ولقاء الشيوخ إحياء هذه « السنة المندثرة » ، ولكن لم يواته الأجل(٣٠) .

ومع ذلك فإن عبارات مثل إنهاء عصور الرحلة ، وختام الرحالين ، وإحياء السنة المندثرة لم تكن دالة على حقائق مطلقة وعامة ، فالاندثار لم يكن عاماً ، وإنما كان اندثاراً أو انحساراً نسبياً إذا قورنت الرحلة بما كانت عليه من قبل في القرون السابقة ، وإلا فإن الرحلة عرفت طوال العصور علماء أجلاء يرحل إليهم ، وطلاب فضلاء يقومون بالرحلة . وسوف نورد أمثلة متعددة تجسد هذه الحقيقة . ويكفي أن نذكر هنا أن الرحلة في زمن أبي العلاء الهمذاني كانت موفورة ، وقام بها نفر من معاصريه في جنبات العالم الإسلامي ، منهم أبو طاهر السلفي ، م/٥٧٦هـ ، فقد خرج من أصبهان ، وطاف متعلماً بكثير من البلاد المشرقية كالعراق والشام وبلاد الجبل وخراسان والحجاز ومصر ، واستقر به المقام أخيراً في الإسكندرية حيث بنى له العادل بن السلار ، وزير العبيديين بمصر مدرسة برسمه عرفت بالسلفية ودرس فيها بقية عمره(٣١) .

وظلت الرحلة مشهودة ، ويقوم بها كثيرون في العصور المتأخرة . ولقد أرخ الشوكاني في البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ونجم الدين الغزي في الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة لكثير من هؤلاء الرحالة .

سن الرحلة :

كان الرحالة من المسلمين يرحلون في طلب العلم من أعمار مختلفة ، فبعضهم رحلوا صغاراً في رعاية آبائهم . ولم يكن هؤلاء الصغار مجرد مصاحبين كنفر من الأهل ، وإنما كانوا - كل بحسب مستواه - كالكبار متعلمين باحثين عن شيوخ العلم راغبين في اللقاء بهم والأخذ عنهم والإجازة منهم . كما رحل الشباب والكهول والشيوخ . ولكن السن الغالبة التي تعبر عن الوسط العمري للرحالة إنما هي سن الشباب حيث تتضافر عدة عوامل مواتية على قيام الرحلة ، منها :

- اكتمال النضج الجسمي والعقلي والنفسي الذي يؤهل الطالب لتحمل مشاق الرحلة ، ومطاوعة التكيف في ظروف مغايرة ومع أفراد من بيئات وثقافات مختلفة وتلقي العلم في مستوى متقدم .
- التأكد من صدق وثبات الميول العلمية ، وحسن الاستجابة لنداء الطموحات الشخصية ، والقدرة على بناء المستقبل المهني ، وسلامة اتخاذ القرار الخاص باختيار المدينة التي يرحل إليها ، والمادة التي يرغب في تحصيلها ، والشيخ الذي يأخذ عنه .
- تكوين ثروة تعين على الرحلة وتكاليفها أو تدبير عمل يرتزق منه طوال سنوات الرحلة .
- التفرغ أو التخفف من شواغل الحياة العائلية ، والتي قد تصد كثيراً من الراغبين في العلم عن السفر والتغرب .

وهذا ما لخصه أبو حنيفة في وصيته لتلميذه أبي يوسف حيث قال « واطلب العلم أولاً ، ثم اجمع المال من الحلال ، ثم تزوج ، فإنك إن طلبت المال في وقت التعلم عجزت عن طلب العلم (وألهتك الدنيا والزواج والأولاد) . . واشتغل بالعلم في عنفوان شبابك ووقت فراغ قلبك وخاطرك »(٣٢) .

صغار رحلوا للعلم :

ومن أمثلة الصغار الذين رحلوا للعلم :

- أبو بكر بن العربي (محمد بن عبد الله) م/٥٤٣هـ ، رحل مع أبيه من الأندلس ، وطاف بكثير من بلاد المشرق في مصر والشام ومكة وبغداد وغيرها(٣٣) .

- أحمد بن عمر (أبو العباس الأنصاري) م/٦٢٦هـ أو ٦٥٦هـ : « رحل مع أبيه من الأندلس في سن الصغر ، فسمع كثيراً بمكة والمدينة والقدس ومصر والإسكنـدرية وغيرها من البلاد (وأصبح عالماً) يشار إليه بالبلاغة والعلم والتقدم في الحديث »(٣٤) .
- ابن سيد الناس ، م/٧٣٤هـ ، من بيت رياسة بأشبلية ، أحضره أبوه وهو في الـرابعـة من عمـره فأسمعه على الشيخ شمس الدين المقدسي والقطب القسـطلاني وغـيرهمـا ، ثم رحل إلى دمشق ، وأجاز له جمع جم . ويذكر الذهبي أن مشيخته تقارب الألف(٣٥) .
- الفيروز أبادي ، م/٨١٧هـ ، بعد أن حفظ القرآن وتعلم في بلده كازرين ، انتقل إلى شيراز في سن الثامنة ، وتعلم على والده وعدد آخر من شيوخ العلم بها ، ثم واصل رحلته مع تقدم العمر ، فرحل إلى واسط في سن السادسة عشرة وتعلم القـراءات بها ، ثم رحل إلى دمشق وغيرها من بلاد الشام ، وتلقى كثيراً من العلوم(٣٦) .

وشـباب رحـالة :

أما عن الشباب الرحالة الذين طافوا بكثير من عواصم الحضارة الإسلامية للتعلم أو للتوثيق العلمي أو للسياحة الثقافية ، فهم لا يحصون عدداً ، نذكر منهم :

- البخاري ، المحدث الشهير ، م/٢٥٦هـ ، فقد رحل إلى مكة وأقام بها مدة يطلب فيها الحديث ، ثم رحل بعد ذلك إلى سائر مشايخ الحديث في البلدان وكتب عن أكثر من ألف شيخ(٣٧) .
- أبو يوسف الفسوي ، م/٢٧٧هـ ، رحل من بلدته فسا (من أقاليم فارس) متغـرباً في رحلة طويلة طاف خلالها كثيراً من البلاد في المشرق والمغرب ، وروى عن ألف شيخ كلهم ثقات(٣٨) .

- قاسم بن أصبغ المعروف بالبياني م/ ٣٤٠هـ ، سمع بالمشرق ومكة ومصر عن كثيرين(٣٩) .
- أبو حاتم بن حبان البستي م/ ٣٥٤هـ ، زار في رحلته عدداً كبيراً من البلدان تناثرت ما بين الشرق والغرب ، ولقى كثيراً من المشايخ . قال في كتابه « التقاسم والأنواع » : « لعلنا كتبنا عن ألف شيخ ما بين الشاش والإسكندرية »(٤٠) .
- خلف بن محمد بن خلف الخولاني م/ ٣٧٤هـ ، سمع بمكة والمدينة والإسكندرية ومصر والقيروان(٤١) .
- يحيى بن مالك بن عائذ بن كيسان م/ ٣٧٥هـ من أهل طرشوشة بالأندلس ، سمع ببغداد وحدها من سبعمائة رجل ونيف ، كما سمع من كثيرين ببلاد أخرى زارها في رحلته الطويلة(٤٢) .
- ابن العريف م/ ٣٩٠هـ ، رحل من قرطبة إلى بلاد المشرق ، ثم عاد إلى الأندلس فاستأدبه المنصور لبنيه .
- ابن الدباغ (خلف بن قاسم الأزدي) م/ ٣٩٣هـ ، رحل كذلك من قرطبة إلى مدن مختلفة ولقى وكتب عن مائتين وستة وثلاثين شيخاً(٤٣) .
- ابن عساكر ، ولد في ٤٩٩هـ بدمشق ، وتنقل في كثير من البلاد ، وتلقى العلم عن كثير من الشيوخ بلغ عددهم ألفاً وثلاثمائة شيخ وثمانين شيخة ونيفا(٤٤) .
- شرف الدين الدمياطي المعروف بابن الماجد م/ ٧٠٥هـ ، رحل في البلاد والتقى بكثير من العلماء وجمع معجم شيوخه في أربع مجلدات ، وقد بلغ عددهم ألفا ومائتين وخمسين شيخاً(٤٥) .
- أبو حيان الأندلس م/ ٧٤٥هـ تعلم بالأندلس وإفريقيا ومصر ، وأخذ العلم عن أربعمائة وخمسين شيخاً لقيهم في مدن متعددة ، أما من أجاز له فكثير جداً(٤٦) .

- ابن بطوطة قام برحلته من طنجة بالمغرب ، واتصل بشيوخ العلم في معظم البلاد التي زارها ، كما أجازه عدد من أساتدة دمشق الذين حضر لهم دروسهم ، وأقام بعدد من المدارس في مختلف البلاد الإسلامية في المشرق(٤٧).
- خالد بن عيسى البلوي الأندلسي م/٧٦٥هـ أو قبل ٧٨٠هـ. قام برحلته إلى المشرق في سنة ٧٣٦هـ بعد رحلة ابن بطوطة بسنوات قليلة ، وأخذ المعلم عن شيوخ كثيرين(٤٨).
- ابن النجار قام من المغرب برحلة طويلة في المشرق العربي زار خلالها كثيراً من المدن ، واشتملت مشيخته على ثلاثة آلاف شيخ(٤٩).
- التاج الكندي ، لقى جلة المشايخ وأخذ عنهم في بلاد عديدة ، وله كتاب مشيخه على حروف المعجم(٥٠).
- محمد الفناري ولد في ٧٥١/هـ ، ارتحل إلى بلاد كثيرة وأخذ عن شيوخها ، وعلم في بلاد الروم وبلاد قرمان(٥١).
- أبو عبد الله التلمساني العجيسي م/٧٨١هـ ، رحل عن تلمسان إلى كثير من بلاد المغرب والمشرق ، واستمع إلى علماء أفاضل ، وبلغت شيوخه ألفي شيخ(٥٢).
- إبراهيم بن محمد بن خليل البرهان الطرابلسي م/٨٤١هـ ، ترحل طالبا في بلاد كثيرة ، وروى عن شيوخ كثيرين الشعر والحديث والعلوم(٥٣).
- السخاوي ، م/٩٠٢هـ ، زار في رحلته العلمية أكثر من ثمانين بلداً في الأقطار المختلفة ، وأخذ العلم عن ألف ومائتي شيخ(٥٤).
- عبد العزيز بن عمر بن فهد م/٩٢٠هـ ، رحل في بلاد كثيرة وأخذ عن شيوخ كثيرين بلغوا نحو ألف شيخ ذكرهم في معجم شيوخه(٥٥).

ويلاحظ أن معظم هؤلاء الشباب في العشرينيات من العمر ، وهي سن القوة والصحة والعزيمة والمغامرة والأمل والطموح . فابن بطوطة وخالد بن عيسى

البلوي كانـا في الثالثة والعشرين من العمر عند قيامهما بالرحلة . والقليل من هؤلاء الرحالة كانوا دون العشرين كالبخاري الذي رحل في سن الثامنة عشرة .

كما يلاحظ كذلك كثرة المغاربة أو الأندلسيين الذين قاموا بالرحلة إلى بلاد المشرق . ويمكن تعليل هذه الظاهرة بسببين :

- **السبب الأول** : تعدد العواصم الثقافية بالمشرق العربي والتي حظيت بأعداد كبيرة من فطاحل العلماء ، ومن ثم فقد اشتهرت بمذاهبها الدينية وفلسفاتها العلمية ، وإبداعاتها الثقافية ، ومدارسها اللغوية على نحو جعلها متقدمة علمياً وفكرياً بالنسبة لنظيراتها بالمغرب العربي . وقد أصبحت الزيارة إليها والإفادة من كنوزها الثقافية وعلوم شيوخها الأجلاء مطمحاً كبيراً يرغب في تحقيقه شباب المغاربة الذين يعملون لبناء مستقبل علمي مرموق . ولهذا فقد حرصت التراجم التي أرخت لهم على ذكر عبارة أثيرة : « كانت له رحلة إلى المشرق وعاد بعلم غزير أو كثير »(٥٦) .

- **السبب الثاني** : الخروج للحج ، وأداء مناسكه ، وهذا يتطلب المرور بعدد من البلاد المشرقية وكان الرحالة يلتقي في طريقه للحج بعدد من العلماء سواء في حلقات العلم بالمساجد أو في قاعات الدرس بالمدارس . وقد يجد نفسه قريباً من كبرى المدن العلمية ولا يرى مشقة في انتهاز فرصة وجوده بالشرق لزيارة شيوخ مشهورين والأخذ عنهم .

وقـد خرج كذلـك طلبـة علم رحـالة من بلاد إسلامية غربية أخرى غير الأندلس وبلاد المغرب العربي ، فالشيخ محمد بن أبي الفوج المعروف بالزكى من أهل صقلية قام برحلة تجول خلالها بالعراق وخراسان وغزنة وبلاد الهند ، ومات غريباً بأصبهان في عام ٥١٠هـ(٥٧) .

أما طلبة المشرق فإن الواحد منهم كان يتعلم في مدينته إن كان ساكناً بها أو بالمدينة المجاورة إن كان مقيماً خارجاً عنها ، ولا يعتبر هذا الخروج للتعلم رحلة ، لأن الرحلة عادة تتضمن مسيرة طوافة في بلاد متعددة خارج نطاق الإقامة أو السكن . وكان أغلب الرحالة من المشارقة يجوبون البلاد التي تقع في أقاليمهم أو التي تقع في أقاليم أخرى بالمشرق .

- فالشافعي قام برحلة مشرقية كما ذكرنا سالفاً .
- والحسن بن عبد الله العسكري م/٣٨٢م قام برحلته إلى بغداد والبصرة وأصبهان وغيرها من دول المشرق الفارسي(٥٨) .
- والغزالي رحل من قريته غزالة للتعلم في طوس ، ثم بدأت رحلته الحقيقية للتعلم في جرجان ثم في نيسابور بالمدرسة النظامية .
- أبو سعد السمعاني ، طاف ببلاد خراسان وما وراء النهر بالمشرق الأقصى .
- والصدوق (ابن بابويه القمي الشيعي) م/٣٨١هـ ، رحل وتعلم في بلاد المشرق (العراق وفارس) وأخذ العلم عن مائتي شيخ(٥٩) .

ولما قامت الدولة العثمانية وأقامت المدارس في مدنها المختلفة كان « طلبة الروم » في أغلبيتهم الساحقة يكتفون بالتعلم فيها ، وقليل منهم من رحل إلى مدن مشرقية خارج حدود الدولة العثمانية للقاء مشاهير العلماء والأخذ عنهم ، من هؤلاء الرحالة :

- علي بن يوسف بن شمس الدين الفناري م/٩٠٣هـ ، ارتحل للعلم من بلاد الروم إلى بلاد العجم ، ثم عاد للتدريس في سلطنة محمد خان ببروسة(٦٠) .
- محمد البردعي م/٩٢٧هـ بأدرنة « أحد موالي الروم » ، رحل إلى شيراز وهراة وقرأ على علمائها وحصل علماً كثيراً ثم (عاد) إلى بلاد الروم ودرس بمدارسها(٦١) .

وللكهول والشيوخ نصيب من الرحلة :

لم تقف الرحلة عند سن الشباب ، بل تجاوزتها إلى مراحل عمرية متأخرة . وغالباً ما كان يخرج الرحالة شاباً ثم يعود بعد سنوات طالت أو قصرت كهلاً أو شيخاً نظراً لطول الرحلة . وقد تصبح عادته كثرة الترحل من مدينة إلى أخرى ، أو يخرج للرحلة من وقت لآخر ، فالشيخ ابن البـاذش م/٥٢٨هـ « كان مع تصدره وتقدمه لا يقطع الطلب والسماع والرحلة »(٦٢) .

وقد يخرج الطالب في رحلة العلم في سن متأخرة نسبياً ، كالتيجاني الذى قام برحلته فيما بين السادسة والثلاثين والأربعين من العمر .

مـــدد الرحلـة :

اختلفت مدة الرحلة من طالب لآخر أو من رحالة لآخر حسب الظروف الشخصية لكل فرد وبحسب الهدف الخاص من الرحلة .

في العصـور الأولى التي قام فيها الشيوخ أو الطلاب بالبحث عن جواب لسؤال ، أو تحقيقاً لمسألة أو طلباً لحديث ، فإن الرحلة كانت وجيزة مختصرة ، قد تدوم أياماً أو أسابيع أو شهوراً قليلة . وإذا كانت الرحلة لغرض تعليمي طويل الأجل يستهدف الرحالة من ورائه قراءة بعض الكتب ، أو تحصيل بعض العلوم والإجازة فيها ، فإن الرحلة قد تستغرق شهوراً كثيرة أو سنوات معدودة ، إذا تشعبت أغراض التعليم وتنوعت المواد المراد تحصيلها ، وإذا وجد من الأساتذة الأعلام عدد كبير يحمل الطالب أو الرحالة على البقاء طويلاً لمصاحبتهم والأخذ عنهم ، وتصبح عادته التنقل من شيخ إلى شيخ . وهكذا وجدنا من تجاوزت مشيخته بضع مئات ، ومن وصل عدد شيوخه إلى أكثر من ألف ، ومن كان له أكثر من ألفين ، ومن زاد عدد أساتذته إلى ثلاثة آلاف على النحو الذي أشرنا إليه من قبل .

ولم يكن مستغرباً في مثل هذه الحالات أن تطول مدة الرحلة لعشرات من السنين .

- فالبخاري طاف أربعين سنة في العالم الإسلامي وكانت رحلته خاصة بجمع الحديث(٦٣) .
- وأبو طاهر السلفي ، تجول في البلاد ثمانياً وثلاثين سنة ، التقى فيها بأكثر من ألف شيخ(٦٤) .
- وأبو يوسف الفسوى ، تغرب عن بلده في رحلة بلغت ثلاثين سنة تنقل خلالها بين الشرق والغرب(٦٥) .
- وابن النجار طالت رحلته إلى ثمان وعشرين سنة ، سمع فيها لثلاثة آلاف شيخ وشيخة(٦٦) .
- ويحيى بن مالك بن كيسان ، ظل يتردد بدول المشرق وينتقل بين مدائنه على مدى ثنتين وعشرين سنة لقى فيها عدداً كبيراً من مشايخ العلم(٦٧) .
- وسلام بن يزيد الأندلسي ، رحل إلى بغداد ليأخذ عن الجاحظ علمه فأقام عنده عشرين سنة(٦٨) .

وقد تكون مدة الرحلة فترة متصلة ، إذا ظل الرحالة غريباً عن موطنه ، متنقلاً في البلاد ، طالباً للعلم . وقد يقطعها الرحالة بالعودة إلى بلده والإقامة بها للعمل ، ثم يستأنف الرحلة مرة أخرى وفي وقت آخر فتحسب رحلة ثانية مثل :

- فضل بن سلمة بن جرير بن منخل الجهني م/٣١٩هـ بجانة بالأندلس ، « كانت له رحلتان ، أقام فيهما عشرة أعوام »(٦٩) .

الرحلـة للرجـال :

إن الظاهرة الملفتة للنظر أن الرحلة العلمية كانت خاصة بالرجال ، إذ لم تذكر التراجم رحلات مماثلة قامت بها عناصر نسوية ، على الرغم من وجود أعداد كبيرة لمتعلمات وعالمات : فقيهات ومحدثات وشاعرات وكاتبات .

ولا شك أن التقاليد الإسلامية التي كانت تلزم المرأة بالقعود في البيت ، ولا تستحسن اختلاط الأنثى بالذكر في مجالس التعليم كانت وراء هذه الظاهرة . كانت المرأة تتعلم في البيت على يد أبيها أو زوجها ، أو جارية متعلمة ، أو بواسطة مؤدب خصوصي تستقدمه الأسرة نظير أجر معلوم .

وأحياناً كانت تخرج المرأة إلى المسجد منتظمة في حلقات العلم التي تعقد خصيصاً للنساء ، أو التي لا تكون بها خلوة ، أو التي يضرب فيها بستار يعزل النساء عن الرجال . وهذا الخروج النسوي للتعلم لم يكن يتجاوز نطاق المحلة السكنية أو المدنية التي تقيم بها المرأة الطالبة للعلم .

ولم يكن العرف الاجتماعي يسمح بسفر المرأة وحدها ، واغترابها للعلم أو للعمل . كما أن الرحلة في معظم الأحوال كانت شاقة تتطلب استعدادات وأعباء لا يقدر عليها غير الأشداء من الشباب والرجال الذين خلقوا لتحمل الشدائد .

ومع ذلك وجدت نسوة رحلن كبنات وزوجات ، وكن في صحبة آباء وأزواج قاموا بالرحلة العلمية وأقاموا في مدن العلم ، وقد سمحت الظروف لبعضهن بتحصيل العلم في هذه البيئات الجديدة .

متطلبات الرحلة :

إذا كانت الرحلة مقصورة على الجنس الخشن من الرجال ، فإن ذلك كان يستجيب لطبيعة الرحلة في تلك العصور الغابرة ويتوافق مع متطلباتها . وعموماً كانت متطلبات الرحلة تستند إلى ركيزتين تتعلقان باستعداد الطالب الرحالة ، ووجود الأستاذ الرُّحْلة .

أ - استعداد كامل للتعلم :

كان أطفال المسلمين يتعلمون في صغرهم ما يأمرهم به الدين وما تطالبهم به الحياة الحضارية التي يحيونها . فالدين يأمرهم بالتفقه وقراءة القرآن للتعبد والعمل به ، ومن ثم فقد أقيمت لهم جميعاً الكتاتيب للنهوض بهذه المهمة . ولكن القرآن في قراءته وحفظه كان يتطلب معرفة القراءة والكتابة ، مما نهضت به كذلك رسالة التعليم في الكتاب . وكان هذا التعليم إلزامياً ، لم تفرضه قوانين ، ولم ترتبط بالتقصير فيه عقوبات ، ولكنه كان إلزاماً معنوياً ، حيث كان يتألم المسلم ألا يرسل بابنه إلى الكتاب ولا يعلمه الدين والتفقه فيه . وكانت تكاليف هذا التعليم الأولي بسيطة للدرجة التي يسرت للفقراء عملية التعليم دون أن يجدوا عقبة مادية تحرمهم منه . ومع ذلك انتشرت الكتاتيب الخيرية والموقوفة برسم الأيتام ، وتعليمها بالمجان ، وحياة المتعلمين فيها مكفولة النفقات .

وبجانب هذا التعليم الديني كان الصغار يتعلمون تبعاً لرغباتهم وقدراتهم مواد أخرى مختلفة من حساب وشعر ونحو وأخبار وغير ذلك مما يلبي مطالب حياة ثقافية متسعة .

والذين أنهوا هذا التعليم الأولي ولم تخطفهم أشغال الحياة العملية كانوا يواصلون التعلم إما بجهدهم الذاتي وإما بواسطة شيوخ العلم في مجالس وحلقات وقاعات تعليم في المدن التي يسكنون بها أو القريبة من مواطن إقامتهم .

أما الذين لم يكتفوا بذلك القدر ورغبوا في الوصول إلى أعلى مستويات التعلم ، فقد كان عليهم أن يرحلوا إلى حيث يوجد الأعلام في مجالات العلوم والآداب والفنون ، وإلى حيث يستطيعون أن يصلوا إلى مصادر العلم الثرة ، وهؤلاء كانوا قلة متميزة باستعداد خاص للتعلم الرفيع . وهذا الاستعداد ليس شيئاً عادياً يمتلكه أي فرد ، إنه مواهب وقدرات وصفات تتمثل في :

١ - قدرة عقلية جيدة :

كان الأسلاف من المسلمين يؤمنون بأن العلم درجات أو مستويات ولكل منها نوعية خاصة من زبائن التعليم ، وكانوا يضنون بالعلم الرفيع أن يعطي لغير أهله ممن لا يصلحون له ، « فلكل ما شاكل طبعه » ، « وكل ميسر لما خلق له »(٧٠).

وكان للعالم دور في تمييز النجباء واصطفائهم للتعلم ، ولم يكن من السهل أن يقبل متعلماً دون المستوى المطلوب .

فالخليل بن أحمد صرف أحد طلبته لما وجده فاقد القدرة على تعلم العروض وقد اختبره ببيت له دلالته السيكلوجية :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وأحمد بن عبد الرحيم . . بن الزين العراقي صرف بعض تلامذته ممن لا يفهمون عنه(٧١). ولهذا كان على الطالب الرحالة أن يتأكد من قدرته على تعلم ما يريد التخصص فيه قبل أن يكلف نفسه عناء الرحلة وتكاليف السفر والاغتراب ثم يتعرض في النهاية لمواقف الفشل والطرد .

٢ - ميل قوى وشهوة دافعة :

القدرة العقلية وحدها لا تكفي ، إذ لابد أن يسندها ميل قوي للتعلم أو ما عبر عنه الأسلاف « بالشهوة » الدافعة للتعلم . إن الإنسان الذكي قد لا يتعلم شيئاً إذا كان زاهداً في تعلمه ، غير محب له ، ولا مقبل عليه ، بعكس المتعلم العادي الذي يسير بقدرات متوسطة لكنه يجد نفسه مدفوعاً بقوة نفسية معلنة أو خفية تجعله مثابراً ومغالباً لكل مشقة حتى يجيد ما يرغب في تعلمه .

ويضرب أبو هلال العسكري مثالاً مفيداً في هذا المجال ويقول : « حكى عن النظام (م/٢٣١هـ) أنه قال : لو نظرت في العروض لأحكمته في يومين .

وقال الأخفش : فنظر فيه ، فلم يعرف المتحرك من الساكن في شهرين »(٧٢) مع قدرة النظام الفذة التي جعلته من أئمة المعتزلة العقليين وذلك لغياب الطبع ، وفقد الميل الذي يحببه في العروض ، يعلل العسكري قائلاً : « النفس إذا اشتهت الشيء ، كانت أسمح في طلبه ، وأنشط لالتماسه . وهي عند الشهوة أقبل للمعاني وإذا كانت كذلك لم تدخر من قواها ، ولم تحبس من مكنونها شيئاً ، وآثرت كد النظر على راحة الترك . ولذلك قيل : يجب على طالب العلم أن يبدأ فيه بالمهم ، وأن يختار من صنوفه ما هو أنشط له ، وطبعه به أعنى ، فإن القبول على قدر النشاط ، والبلوغ على قدر العناية »(٧٣) .

٣ - جلد وتحمل :

لم يكن يرحل المتعلم إلا إذا آنس في نفسه هذا الميل الغلاب الذي يدفعه إلى الغربة مضحياً بكل عزيز لديه ، ويعطيه القوة التي يواجه بها التحديات فيهون عنده في سبيل العلم كل شيء .

ويعلل الشيخ علي بن إبراهيم القزويني م/٣٤٥هـ سبب عماه في كبره بقوله « أظن أني عوقبت بكثرة بكاء أمي أيام فراقي لها في طلب الحديث والعلم »(٧٤) .

وهل هناك جلد وقوة تحمل أكبر من ترك الأهل والتفرد لسنين طوال في بلاد بعيدة ملاقياً عذاب الغربة بنفس راضية وعزيمة من أجل الظفر بعالم كبير يعطيه من علمه ما يسعده وينسيه متاعب الرحلة ؟!

قال الأندلسي : « فارقت بلدي في أقصى الغرب طلباً للعلم وابتغاء مشاهدة العلماء فكنت إلى أن دخلت بغداد ، وتلقيت أبا سعيد السيرافي (م/٣٦٨هـ) ، وقرأت عليه كتاب سيبويه نادماً سادماً في اغترابي عن أهلي ووطني من غير جدوى في علم أو حظ في الدنيا . فلما سعدت برؤية هذا علمت أن سعيي قرن بسعدي ، وغربتي اتصلت ببغيتي ، وأن عنائي لم يذهب هدراً ، وأن رجائي لم ينقطع يأساً »(٧٥) .

وكذلك فإن الأصمعي سبق أن قام برحلة شاقة قطع فيها البادية ليسمع الأدب ، ولما خاب سعيه في أول الأمر قال : « أصبحت وقد عزمت على الرجوع إلى العـراق فأتيت أبـا مثواى ، فقلت إني هلعت من طول الغربة ، واشتقت أهلي ، ولم أفد في قدمتي إليكم كبير علم ، وإنما كنت أغتفر وحشة الغربة وجفاء البـادية للفائدة » . فأخذه صاحبه ورحلا لمسافة غير كبيرة ، حتى أسمعه أدباً معجباً ومؤثراً ، فقال الأصمعي راضياً : « فقمت ، والله ، وقد أنسيت أهلي ، وهان عليّ طول الغربة ، وشظف العيش ، سروراً بما سمعت »(٧٦) .

ومع قوة الصبر على فراق الأهل ، كانت هناك قوة التحمل لظروف السفر والتنقل ، فقد يضطر الرحالة على حمل زاد يعينه ، أو كتب يشتغل بها أو قطع من الثياب يبـادل بينهـا في لباسه . وقد يتحمل تقلب الأجواء بين حر لافح وبرد قارص ، وقد يعاني من وحشة الطريق بلا رفيق ، وقد تكون الرحلة سيراً على أقدام تورمت من كثرة المشي .

ولكن في سبيل الغاية الرفيعة تهون الآلام الفظيعة ، قال أبو حاتم الرازي م/٢٧٧هـ لابنه عبد الرحمن : « يا بني مشيت على قدمي في طلب الحديث أكثر من ألف فرسخ » .

وأبـو العـلاء الهمـذاني م/٥٦٩هـ كان يقـطع الطريق الطويل إلى بغداد وأصبهان مرات ماشيا يحمل كتبه على ظهره ، وكثيراً ما بللها العرق(٧٧) .

٤ - تأميـن الكفايـة :

والكفاية في لغة التراث تعني تدبير الموارد أو توفير الحاجات المادية التي تغني طالب العلم في رحلته عن شغل نفسه بطلب الرزق « فالتكسب وتعذر المعاش - كما يقول أبو هلال العسكري - مقطعة ، والرغبة إلى الرجال مذلة ، الحاجة تميت النفس وتفسد الحس »(٧٨) .

وعادة لم يكن يخرج للرحلة ممن وهبوا قدرات عقلية ، وميولاً دافعة ، وقوة تحمل ، إلا أحد اثنين : غني متمول ، أو فقير متكسب غير متسول .

أما عن الأغنياء ، فقد خرجوا بأموال تكفيهم أمور معاشهم طوال سنوات الرحلة ، كانوا ينفقون بسخاء ، ولم يحرموا أنفسهم من طيبات الحياة . كان منهم من يصطحب أسرته إن كان متزوجاً ، ويسكن في بيت مريح أو في خان مناسب ، ويتلقى العلم عند شيخ مشهور سواء مع العامة من الطلبة أو مع الخاصة نظير أجر مدفوع ، وكان منهم من تخدمه الإماء والعبيد ، ومن يتسرى بجوار مملوكات . وقد تهولنا أرقام كبيرة لمبالغ دفعوها كلفة للرحلة :

- فمحمد بن سنجر الجرجاني م/٢٥٨هـ ، أنفق في رحلته العلمية تسعة آلاف دينار كان قد خرج بها ، وذلك في زمن مشهود برخص الأسعار(٧٩) .
- وإبراهيم بن محمد بن سختويه م/٣٦٢هـ قدم إلى بغداد في سنة ٣١٦هـ طلباً للحديث فأنفق ما يقرب من أربعين ألف درهم على أصحاب الحديث كابن صاعد وغيره(٨٠) .

أما عن الطلبة من الفقراء الذين قاموا بالرحلة ، فإنهم اعتمدوا على أمرين :

- أن يعيشوا حياة الكفاف راضين بما يقوم بأدنى حاجاتهم الضرورية والتي لابد منها .
- أن يبحثوا مضطرين عن عمل عرضي ، لا يصرفهم عن العلم ، ويزودهم بقليل من المال إذا لم يكن لهم حظ في القبول بمدارس موقوفة تكفل نفقات المتعلمين .

ولقد ضربوا لنا أروع المثل في مواجهة الظروف القاسية التي كانوا يتعلمون فيها :-

- كان بقي بن مخلد م/٢٧٦هـ ، يقول : « إني لأعرف رجلاً كانت تمضي عليه الأيام في وقت طلبه ليس له عيش إلا ورق الكرنب »(٨١) .

- والحسن بن سفيان م/٣٠٣هـ كان مع إخوانه « في رحلتهم إلى مصر لطلب الحديث ، وظلوا ثلاثة أيام لا يأكلون فيها شيئاً ، ولا يجدون ما يبيعونه للقوت ، واضطرهم الحال إلى تجشم السؤال »(٨٢).
- وأبو حاتم الرازي يعبر عما قاساه في رحلة التعلم ، فيقول : «بقيت بالبصرة فبعث ثيابي حتى فرغ زادنا ، فمشينا ثلاثة أيام لا نأكل شيئاً(٨٣).
- وأبو العلاء الهمذاني ، وقد مر ذكره يقول : « كنت أبيت (أثناء رحلته) ببغداد في المساجد وآكل خبز الدخن »(٨٤).

٥ - جـد واجتهاد :

ومثل هؤلاء الفقراء وضعوا همتهم في تحصيل علمهم ، فلم يأبهوا بمطعم ومسكن وملبس ، وشعارهم « ما قل كفى » ، كان منهم من يمشي بلا سروال ، ومن يبيت في غرفات الجوامع ومنارات المساجد ، ومن يذاكر على قناديل الحراس في الشوارع ، ومن يعمل بالنسخ ليحصل على أجر زهيد. . بل كان هناك من الأغنياء من حرموا أنفسهم من متع الحياة مع قدرتهم على التمتع ، لأن طلب العلم كان يشغلهم حتى عن مجرد التفكير في طيب الحياة .

- قال أبو الفرج بن الجوزي : « كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث وأقعد على نهر عيسى (من ضواحي بغداد) فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء ، فكلما أكلت لقمة شربت عليها ، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم »(٥٨).
- ويحكي عن أمثاله من الميسورين الذين هجروا اللذات من أجل العلم ، فيقول بلسان أحدهم : « بقيت سنين أشتهي الهريسة لا أقدر ، لأن وقت بيعها (كان) وقت سماع الدرس » .
- ويورد لأبي إسحاق الشيرازي قوله : « كنت أشتهي وقت طلبي العلم الثريد بماء الباقلاء سنين فما صح لي لاشتغالي بالدرس وأخذ السبق بالغدوات والعشيات »(٨٦).

- وقال أبو حاتم م/٣٢٧هـ : « كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقة ، نهارنا ندور على الشيوخ ، وبالليل ننسخ ونقابل »(٨٧).

وكان الرحالة المغتربون أكثر جداً من المقيمين الذين لا يعملون حساباً للوقت ولا يشعرون بحنين للأهل ، ولا يحسون بعذاب الغربة ، ولا يكترثون بهموم العيش . قال إبراهيم بن يحيى م/٢٢٥هـ : « لقد طلبت العلم بالمدينة ، حتى ظن الغريب إذا دخلها أني بها غريب لشدة طلبي وحرصي على العلم »(٨٨).

وهكذا كان شأن الجميع أغنياء وفقراء جادين في حياتهم ، مجتهدين في تحصيلهم ، وشعارهم : « لا ينال العلم بالراحة » . كتب البديع الهمذاني إلى القاضي أبي القاسم ، فقال : « . . . والعلم أطال الله بقاء القاضي . . غرض لا يصاب إلا بافتراش المدر ، واستناد الحجر ، ورد الضجر ، وركوب الخطر ، وإدمان السهر ، واصطحاب السفر ، وكثرة النظر ، وإعمال الفكر »(٨٩).

ومن قديم حدد الشافعي الوسائل الست التي بها يبلغ الطالب منتهاه ، فقال(٩٠) :

أخي لن تنال العلم إلا بستة	سأنبيك عن مجموعها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة	وصحبة أستاذ وطول زمان

وجاءه من بعده من زادها إلى تسع ، فقال(٩١) :

بتسع ينال العلم : قوت وصحة	وحرص وفهم ثاقب في التعلم
ودرس وحفظ للعلوم وهمة	وشرخ شباب واجتهاد معلم

٦ - تفرغ تام للعلم :

كل ما سبق يصب مباشرة في مبدأ التفرغ التام للعلم ، فالاستعداد القوى للتعلم هو الذي يملك على المتعلم أقطار نفسه حتى يصبح في يقظته ونومه

مشغـولاً بالعلم عما سواه . وهـذا الاستعـداد Vocation يعـادل عنـد الغربيين الدخول في سلك الرهبنة والتي يقطع معها كل سالك روابطه بالحياة الشاغلة .
وقديماً قال الأسلاف : « من لم يكن له عيال ، وليس عليه ديون ، فهو رجل ميسر للعلم وتحصيله »(٩٢) . كما قالوا : « العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك » قال المقدسي : « ويأبى العلم أن يضع كنفه أو يخفض جناحه أو يسفر عن وجه إلا لمتجرد له بكليته ومتوفر عليه بإنيته ، معان له بالقريحة الثاقبة والرؤية الصافية . . لا يظلم العلم بالتعسف والاقتحام ، ولا يخبط فيه خبط العشواء في الظلام »(٩٣) .

ب- اختيــار الأســتاذ :

قبـل أن يبـدأ الـطالب رحلتـه وقد وثق في كفاءته وقوة استعداده لمواصلة التعلم ، كان عليه أن يتثبت من وجهتـه في الـرحلة ، فمـدن العلم منتشرة في العالم الإسـلامي . وأساتذة العلم كثيرون لا يحصون عدداً ، ومن ثم كان عليه أن يحسن اختيار الأستاذ الذي يرحل إليه . ولم يكن كل أستاذ رحلة ، وإنما اشتهر بعض المشـايخ الأعـلام فجـذبـوا نحـوهم أعـداداً متـزايدة من طلاب العلم الرحالين ، وأصبحوا أئمة في فنونهم وعلومهم ، وعنهم تؤخذ ، وإليهم تضرب أكباد الإبل .

وعموماً تجسدت شهرة الأستاذ في أمرين :

- سمعـة طيبـة عن شخصية الأستاذ ترتبط بغزارة علمه ، وجودة تدريسه ، وحسن حفاوته بالغرباء .
- كتبـه المصنفـة الفريدة في بابها والتي تمثل قيماً علمية رفيعة يروجها تلامذته ومريدوه في الآفاق .

يترجم الشـوكـاني للشيخ شمس الـدين الـذهبي م/٨٤٨هـ ، فيقول : « وجميع مصنفاته مرغوب فيها ، رحل الناس لأجلها ، وأخذوها عنه ، وتداولوها وقرأوها وكتبوها في حياته »(٩٤) .

كما يترجم للشيخ شمس الدين البسطي م/٨٤٢هـ ، فيقول : « وقد تفرد في عصره بكثرة الفنون ، وتزاحم الطلبة بل العلماء بل الأئمة في الأخذ عنه من جميع الطوائف »(٩٥) كما يترجم للحافظ ابن حجر العسقلاني م/٨٥٢هـ قائلاً : « ارتحل إليه العلماء ، وتبجح الأعيان بلقائه والأخذ عنه (كما) رحل إليه الطلبة من الأقطار وطارت مؤلفاته في حياته وانتشرت في البلاد »(٦٩) ويترجم كذلك للجلال المحلي م/٨٦٤هـ فيقول : « رغب الأئمة في تحصيل تصانيفه وقراءتها وإقرائها ، وقرأ عليه من لا يحصى كثرة ، وارتحل الفضلاء للأخذ عنه »(٩٧) .

وهؤلاء الأساتذة كانوا لأغراض مختلفة يرحبون بالطلبة الذين يفدون إليهم من جنبات الأرض ، ويقدمون لهم ما يأملونه منهم . يقول المقدسي م/٣٧٨هـ : « رأيت المصنفين قبلي على ضربين : منهم من عقد لنفسه مجلس تدريس مدة مديدة ، وجمع الغرباء ، وحرص على تخريج التلاميذ ، لينشر اسمه في البلدان ، ويعرفه الخاص والعام ، حتى إذا بلغ أمله وعلا ذكره ، صنف فيلقي كلامه بالقبول ، وقبلت حكمته العقول »(٩٨) .

ويكشف ابن الجوزي السر عن بعض الدوافع التي يكنها نفر من هؤلاء الأساتذة فيقول : « وقد لبس إبليس على الكاملين في العلوم فيسهرون ليلهم ويدأبون نهارهم في تصانيف العلوم ، ويريهم إبليس أن المقصود نشر الدين ، ويكون مقصودهم الباطن انتشار الذكر وعلوم الصيت والرياسة وطلب الرحلة من الآفاق إلى المصنف »(٩٩) .

وقد يخرج الطالب بنية الالتحاق عند شيخ مشهور تخيره ، وعندما يصل إلى مقره ، تجذبه شخصية شيخ آخر ، فيصرف النظر عما كان قد نواه ، ويهجر شيخه ومادته ويتحول إلى هذا الشيخ الجديد ، مثلما حدث لسليم الرازي عندما جاء في حداثته إلى بغداد طلباً لعلم اللغة ، وقبل أن يلتحق عنه شيخه اللغوي ،

استمع مصادفة إلى درس في الفقه لأبي حامد الإسفراييني . فأعجب به وبمادته ، وأقبل عليه وعليها ، تاركاً علم اللغة وشيخه الذي رحل من أجله »(١٠٠).

وقد يحدث كثيراً أن يرحل الطلاب إلى مدن العلم دون اختيار مسبق للشيخ ومادته ، إما للجهل بوجود الأعيان من شيوخ العلم ، في عصور وبيئات لم تكن وسائل الإعلام فيها منتشرة وفعالة على النحو الذي نراه اليوم ، وإما لعدم التثبت في اختيار نوع التخصص ، وبالتالي عدم تحديد الشيخ الذي يعلمه .

وهنـــا كان على هؤلاء الـــطلاب أن يترددوا طويلاً على مجالس الشيوخ ، ويستمعـون إلى دروسهم ، ويلاحـظون طرائق تعليمهم ويقارنون بينهم ، ثم يقـررون أخـيراً : أي مادة وعند أي شيخ . وقد ألف الزرنوجي كتابه الشهير « تعليم المتعلم طريق التعلم » ليأخذ بيد أولئك الحياري من الغرباء في مدن العلم ، ويخاطب كلا منهم بقوله : « لا تعجل في الاختلاف إلى الأئمة ، وامكث شهـرين حتى تتـأمل وتختار أستاذاً ، فإنك إن ذهبت إلى عالم وبدأت بالسبق (الدرس) عنده فربما لا يعجبك درسه فتتركه وتذهب إلى آخر ، فلا يبارك لك في التعلم »(١٠١).

ويفصل ابن جماعة عملية التأمل والاختيار ، فيقول : « يعتمد (الطالب) في كل فن من هو أحسن تعليماً له ، وأكثر تحقيقاً فيه ، وتحصيلاً منه ، وأخبرهم بالكتاب الذي قرأه » وذلك بعد التثبت من وجود صفات طيبة في شخص أستاذه كالدين والصلاح والشفقة(١٠٢).

وعموماً نصح الأسلاف بأهمية البحث عن « المعلم الحاذق » ، لأنه - كما يقول أبو هلال العسكري - « ربما أخذ المتعلم سوء عبارة المعلم ، وذلك إذا لم يكن حاذقاً بطرق التعليم ، عالماً بتقديم المباديء . وإذا كان كذلك لم (يفز) المتعلم منه بطائل ، لأن المقدم إذا أخر والمؤخر إذا قدم ، بطل نظام التعليم ، وضلت مقدمات الأمور ، فأذى المتعلم ذلك ، وإن اجتهد إلى البعد والتأخر ، وعلى قدر الأساس يكون البناء »(١٠٣).

الأساتذة الرّحلة :

من هؤلاء الأساتذة الذين انتشروا في الزمانِ وفي المكان ، وكانوا مدارس حية جاذبة لأصحاب الهمم العلية كثيرون ، نذكر منهم :

- الحسن بن سفيان م/٣٠٣هـ ، محدث خراسان الشهير ، « ضربت إليه آباط الإبل لمعرفة الحديث والفقه »(١٠٤).
- أبو بكر محمد بن إسحاق النيسابوري م/٣١١هـ : « رحلت إليه الطلبة من الآفاق »(١٠٥) .
- أحمد بن عمرو بن منصور م/٣١٢هـ ، من ألبيرة بالأندلس « كانت الرحلة إليه في وقته »(١٠٦).
- قاسم بن أصبغ المعروف بالبياني م/٣٤٠هـ ، اشتهر بتدريس تاريخ أحمد ابن زهير وكتب ابن قتيبة ، « وكانت الموردة عليه في هذه الكتب . وكانت الرحلة إليه في الأندلس كما كانت لأبي سعيد بن الأعرابي بالمشرق »(١٠٧).
- أبو بكر الرازي م/٣٧٠هـ ، « انتهت إليه الرياسة في الفقه ورحل إليه المتفقهه » ببغداد(١٠٨).
- الحسن بن عبد الله العسكري م/٣٨٢هـ ، « رحل إليه الأجلاء للأخذ عنه والقراءة عليه »(١٠٩).
- أبو إسحاق الشيرازي م/٤٧٦هـ . رحل إليه الفقهاء من الأقطار ، من كل صوب في الشرق والغرب(١١٠).
- أبو الفتح أحمد بن علي برهان م/٥٢٠هـ ، « قصده الطلاب من البلاد »(١١١).
- أبو بكر محمد بن عبد الباقي م/٥٣٥هـ ، كان محدثاً شهيراً . رحل إليه المحدثون من أقاصي البلاد(١١٢).
- أبو الحسن محمد الطوسي م/٥٤٠هـ . « رحلت إليه طوائف الشيعة من كل جانب إلى العراق »(١١٣).

- محيي الدين النيسابوري م/٥٤٨هـ ، « رحل إليه الناس من البلاد »(١١٤) .
- ركن الدين الطاوسي م/٦٠٠هـ بهمذان ، « اجتمع عليه الطلبة وقصدوه من البلاد البعيدة والقريبة »(١١٥) .
- عماد الدين بن يونس م/٦٠٨هـ بالموصل ، « قصده الفقهاء من البلاد الشاسعة »(١١٦) .
- ابن عبد السلام م/٦٦٠هـ ، « بلغ رتبة الاجتهاد ، وقصده الطلبة من الآفاق ، ودرّس بعدة بلاد »(١١٧) .
- عبد الله الحسن الأنصاري م/٧١١هـ « قعد للإقراء بمالقة ورحل إليه الناس واعتمدوه »(١١٨) .
- سعد الدين التفتازاني م/٧٩٢هـ بسمرقند ، رحل إليه الطلبة وأفادوا من علمه وتصانيفه المشهورة(١١٩) .
- عبد الله بن الحسن اليماني الملقب الدواري م/٨٠٠هـ « كان الطلبة للفنون العلمية يرحلون إليه ، ويتنافسون في الأخذ عنه ، وليس لأحد من علماء عصره ماله من تلامذة وارتفاع الذكر وعظم الجاه »(١٢٠) .
- ابن الجزري م/٨٣٣هـ بشيراز ، تفرد بعلم القراءات في جميع الدنيا ، ونشره في كثير من البلاد ، وكان أعظم فنونه وأجل ما عنده ، وإليه رحل طلبة القراءات كما رحلوا إلى شيوخ القراءات المشهورين من أمثال الكمال ابن فارس م/٦٧٦هـ وأبو إسحاق الحكري م/٧٤٩هـ(١٢١) .
- المولى ابن المعيد الأماسي ، « ليس أحد من الطلبة في عصره إلا ويرتحل إليه (ببلاد الروم) ويقرأ عنده الفقه والعربية »(١٢٢) .
- محمد بن بدر الدين الغزي م/٩٨٤هـ بدمشق ، ولي التدريس بمدارس متعددة « وانتفع به الناس طبقة بعد طبقة ، ورحلوا إليه من الآفاق »(١٢٣) .

- عبد القادر الفاسي المغربي م/١٠٩١هـ ، كانت « بركته مشهورة بحيث إن الطلبة تقصده من البلاد النائية » في هذا العصر المتأخر(١٢٤).
- وإذا لم ترحل المرأة طالبة ، فقد رحل إليها مطلوبة ، ووجد عدد من النساء العالمات ، قصدهن الطلاب في البلاد ، وحصلوا منهن على إجازات في فنون وعلوم مختلفة(١٢٥).

تسهيلات الرحلة :

تكلمنا من قبل عن الصعوبات التي كان يعاني منها طلاب العلم الرحالون ، والواقع أن المجتمع الإسلامي الذي قدر العلم واحتفى بالعلماء ، لم يكن ليترك السائحين في سبيل العلم معذبين أو مهانين ، لقد كانت ترن في آذن الناس كلمات الرسول الحانية والتي يقول فيها « سيأتي أناس من أقطار الأرض يلتمسون العلم ، فاستوصوا بهم خيراً »(١٢٦).

ومن ثم فقد تسابق الجميع إلى تقديم التسهيلات التي شجعت على الرحلة وخففت من آلام الرحالين ، ويمكن حصر هذه التسهيلات في ثلاثة أنواع :

١ - شبكة طرق مسلوكة :

كانت العواصم الثقافية في مختلف الأقطار الإسلامية مترابطة فيما بينها بشبكة طرق جيدة ، تسهل حركة الانتقال والسفر في عالم مفتوح ، تشده أواصر الدين واللغة والثقافة . وكان من الممكن للرحالة أن يقطع العالم الإسلامي كله من شرقه إلى غربه في أقل من عشرة أشهر(١٢٧).

والطرق ممهدة ، تسلكها قوافل التجار ، وتجري على أرضها خيل البريد ، وعلى امتدادها توجد محاط خدمة وانتظار ، ويمر بها الناس من كل جنس ولون تحت مظلة أمن وسلام . ولم يكن السفر كما نتصور أحياناً رحلة عذاب ومسيرة هلاك . ولم تروع الناس حوادث مؤسفة إلا في حالات نادرة أو قليلة ، وغالباً ما كانت تصيب فئة التجار الذين لم يوفروا لتجارتهم المنقولة الحماية اللازمة التي تردع قطاع الطريق(١٢٨).

٢ - أريحية مجتمع كريم :

قام المجتمع الإسلامي بواجبه نحو طلاب العلم ، وتسابقت سلطاته وهيئاته وأفراده في تقديم كل معونة ممكنة ، فأقيمت المدارس بكثرة حتى عدت بالعشرات في كبريات المدن ، وحبست عليها أوقاف دارة مغلة ، وقدمت لطلابها الغذاء والكساء والإيواء والعلم مجاناً ، حتى يتفرغوا للدرس والتحصيل . يقرر ذلك النعيمي ، فيقول :

« وهذا ما يشاهده المحصلون عيانا ، وقد أقيم لهم بناء المدارس والأوقاف ونحوها بما حصل به كفايتهم تدر عليهم بلا نصب بخلاف غيرهم من الناس »(١٢٩) .

ويؤرخ العلموي لمدارس دمشق ، فيتكلم عن صاحب المدرسة الضيائية المقدسية ذاكرا : « بناها للمحدثين والغرباء الواردين مع الفقر والقلة » وعن باني المدرسة الضيائية المحاسنية ، فيقول : « جعلها على فقراء الحنابلة »(١٣٠) .

وبخلاف المدارس كان الأهالي في مدن العلم يظهرون أريحية طيبة في معاملة الطلاب وبالذات الغرباء الوافدين للتعلم ، ويخفضون لهم أجور السكن في الخانات أو في البيوت الخاصة ، والاستحمام في الحمامات العامة ، والأكل في المطاعم الأهلية ، ويقرضونهم إن احتاجوا .

ومن طريف ما حدث أن طالباً بلخيا كان يتعلم عند شيخه الكشغلي الطبري م/٤١٤هـ ، وتأخرت نفقته ، فتدخل شيخه عند أحد التجار من أجل إقراضه ، فأعطاه عشرين ديناراً ، ثم لم يكتف الطالب بذلك ، بل طلب جارية عنده كان يهواها ، فوهبها له وتزوج منها »(١٣١) .

٣ - حفاوة أساتذة مخلصين :

لقد ضرب أساتذة العلم مثلاً طيبة في معاملة طلابهم وبالذات أولئك الذين رحلوا إليهم وأخذوا عنهم . كانوا يفتحون لهم قلوبهم وبيوتهم ويفسحون لهم في مجالسهم ، ويتحفونهم بكل أنواع الإتحاف المادي والمعنوي ، ولم يبخلوا عليهم بعلمهم ، بل كانوا يتألفون طلابهم للأخذ عنهم . وهذا هو شيخ العلماء المعلمين الزهري كان يفتخر بذلك ويقول :

« ما صبر أحد على العلم صبري ، ولا نشره أحد نشري »(١٣٢) .

- وكان مثله مالك بن أنس ، كان يقدم لكل مغترب ما يستطيع حتى يرحل راضياً(١٣٣) .
- والبويطي م/٢٣١هـ ، كان يدني القراء ويقربهم إذا طلبوا العلم ، ويقول : « كان الشافعي (أستاذه) يأمر بذلك ويقول : « اصبر للغرباء وغيرهم من التلاميذ »(١٣٤) .
- أبو مسلم الكجي م/٢٩٢هـ ، كان يحسن في مجلسه ببغداد إلى طلبة العلم ، ويساعد المحتاج ، « ولما فرغ المستمعون له من سماع السنن عمل لهم مأدبة غرم عليها ألف دينار تصدق بجملة منها »(١٣٥) .
- أبو القاسم الأسدي العكبري النحوي (عبد الواحد . . . بن برهان) م/٤٦٥هـ ، مع تكبره على أولاد الأغنياء كان « إذا رأى الطالب غريباً أقبل عليه »(١٣٦) .
- أبو العلاء الهمذاني (سبق ذكره) كان لا يأخذ على التعليم والإقراء والتحديث أجراً ، كان يقدم علمه لكل طالب حسبة ، ويحتفي بكل وافد غريب ، ولكثرة من وفد إليه للتعلم كان يقعد للدرس من أول النهار إلى أخره(١٣٧) .
- زاهر بن طاهر م/٥٣٣هـ ، « كان يكرم الغرباء الواردين عليه ويمرضهم ويداويهم ويعيرهم الكتب »(١٣٨) .

- أبو الفضل ركن الدين عزيز بن محمد بن الحراق المعروف بالطاووسي م/٦٠٠هـ ، « تولى مشيخة دار النورية بعد والده ، فلم يتناول من معلومها شيئاً ، بل كان يرصده للواردين من الطلبة حتى قيل لم يشرب من مائها ولم يتوضأ »(١٣٩).
- إبراهيم بن محمد الطرابلسي (مر ذكره) كان « سهلا في التحدث كثير الإنصاف والبشر لمن يقصده للأخذ عنه ، خصوصاً الغرباء ، مواظباً على الاشتغال والإقبال على القراءة بنفسه »(١٤٠).
- وقد وجد أساتذة غير مسلمين كانت لهم أريحية مماثلة تجاه طلبة العلم ، فالحكيم أبو الحسن بن صاعد بن التلميذ الطبيب البغدادي المسيحي م/٥٩٩هـ. « كان مرسومه ببغداد يزيد كل سنة على عشرين ألف دينار ، وكان ينفق جميع ذلك على طلاب العلم والغرباء وغيرهم »(١٤١).

وبالطبع لم يكن كل شيوخ العلم متحلين بهذا الفضل ، بل كان منهم علماء بخلوا بعلمهم وحبسوه عن الناس ، ومنهم من علموا نظير الأجر ، ولم يكونوا يعلمون إلا بقدر ما يأخذون . ومن الغريب أن نجد شيخاً لا يستغل غير الغرباء من الطلبة ، فيطمع في أموالهم إن كانوا أغنياء ، أو يفيد من خدماتهم له إن كانوا فقراء ، فالحسن بن محمد م/٤٠٦هـ كان - كما يذكر السيوطي - « يفيد أهل البلد مجاناً ، وإذا قصده غريب طمع في ماله إن كان ذا ثروة ، وإن كان فقيراً أدخله إلى بستانه وأمره بنزع الماء من البئر للبستان بقدر طاقته حتى يفيده »(١٤٢).

القيم التربوية للرحلة :

نقصد بالقيم هنا تلك التأثيرات الإيجابية التي تتجسد في معطيات ونتائج عززت من شأن الرحلة وأعطتها أهمية حيوية في القيام بها والتضحية في سبيلها . وهي تربوية بمعنى أن التربية كانت الأداة أو الوسيلة التي تحققت بها . ومن هذه القيم أو المعطيات القيمية :

١ - اكتساب لغة اصطلاحية :

لكل علم أو فن لغة اصطلاحية خاصة به ، لا يستخدمها غير أهله من المشتغلين به . وتمنحهم هذه اللغة امتيازاً معرفياً يحتكرونه دون سواهم ، وبه تتأصل خبرتهم المهنية وصفتهم الثقافية ، ومكانتهم الاجتماعية .

يوضح الجاحظ طبيعة هذه اللغة ، فيقول : « لكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها ، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلا بينها وبين تلك الصناعة »(١٤٣) .

وهذه اللغة ليست جزءاً من العلم ، كما يؤكد ابن خلدون ، ولكنها أداة وظيفية لاكتساب العلم في مجاله التخصصي ، فإنها أسماء لمسمياته ، ودالات على مدلولاته ، ومختصرات لفظية تختزل فيها المعاني الكلية أو القضايا الفكرية . ومن ثم فإنها مفاتيح لقراءة العلم ، ورموز لمبسوط إشكالاته . ومن لم يقف عليها بوعي فاقه فإنه يضل في استخراج المعاني وتختلط عليه المفاهيم . ولهذا كان اكتسابها بالتلقي المباشر عن شيوخ العلم أو الفن ، فهم أصحاب هذه اللغة التي اخترعوها ، وحددوا مصطلحاتها ، وبينوا معانيها .

يبسط في ذلك القول ابن خلدون بلغة علمية منهجية ، فيقول : « والاصطلاحات في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين . فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ ، يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصل وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المكان ، وتصحح معارفه وتميزها عن سواها ، مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتها من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم . وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية . فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال »(١٤٤) .

ولهذا نهى المسلمون عن التعلم « من بطون الأوراق » ونصحوا بأخذ العلم « عن المشايخ الحذاق » . فهم العلماء الذين يرجع إليهم في إشكالات علمهم .

ولقد حدد الفارابي أربعة شروط لابد من توافرها في الشيخ الذي يستحق لقب « عالم » في مادته :

أولها – أن يكون قد أحاط معرفة بأصول ذلك العلم على الكمال .

ثانيها – أن تكون له قدرة على العبارة عن ذلك العلم ، (مما يتطلب استخدام لغة اصطلاحية) .

وثالثها – أن يكون عارفاً بما يلزم عنه .

ورابعها – أن تكون له قدرة على دفع الإشكالات الواردة على ذلك العلم(١٤٥) .

والشاطبي إذ يقر بذلك يؤكد أهمية الرحلة إلى من يملكون في أيديهم مفاتيح العلم ، أو ما يسميه « المعرفة بمقاصد العلم واصطلاحات أهله ، حيث إن الكتب وحدها لا تفيد الطالب منها شيئاً دون فتح العلماء ، وهو مشاهد معتاد »(١٤٦) .

٢ – التكوين العلمي :

إن الحضور المباشر للمتعلم بين يدي الشيخ ليس مهما فقط لاكتساب لغة العلم على النحو الذي أشرنا إليه ، ولكن كذلك لاكتساب العلم نفسه والتقدم في سبيل تحصيله ، فالمتعلم يرحل لإتمام فن بدأه ، واستكمال المعرفة فيه ، أو لقراءة كتاب يصححه على شيخه ويأخذ عنه معايير التصحيح . وهذا شيء لا تقدمه الكتب ، فالعلم ليس تحصيل واختزان معلومات ، إنه تفاعل بين عقول تستثمر فيه مفاهيم العلم وأساليب بحثه . ولهذا كان ابن جابر يقول : « لا يؤخذ العلم إلا ممن شهد له بالطلب »(١٤٧)، وليس هناك كالأستاذ كان طالباً

فأصبح مطلوباً وقد تمرس في طريق تكوينه بالبحث والمناظرة والنقاش والنقد والتحليل والاستدلال والاستنباط . وهذه هي الأدوات التي بها يصنع العلم ، ويستحكم ويتقدم وكل شيخ يحاول تحليل هذه الأدوات لطلابه بالتعليم والتوجيه . ويصلح هذا المبدأ في كل علم أو فن .

ولقد خصص ابن بطلان فصلاً يرد فيه على الطبيب علي بن رضوان الذي ادعى أن تحصيل الصناعة (في الطب) من الكتب أوفق من المعلمين .

وفي هذا الفصل يذكر ابن بطلان العلل التي لأجلها صار المتعلم من أفواه الرجال أفضل من المتعلم من الكتب إذا كان القول واحداً ، ومن هذه العلل بتصرف :

١ - « بعد الجماد (الكتاب) من الناطق (المتعلم) مطيل لطريق الفهم ، وقرب الناطق من الناطق (المعلم) مقرب للفهم .

٢ - نفس المعلم علامة بالفعل ، وصورة الفعل عنها يقال له تعليم ، ونفس المتعلم علامة بالقوة . وقبول العلم فيها يقال له تعلم . والتعليم من المعلم أخص بالمتعلم من الكتب .

٣ - الفهم من المعلم أصح للمتعلم من الكتاب (لنقل ما يستعجم من الألفاظ إلى ألفاظ أخرى) .

٤ - الفهم من لفظ المعلم أسهل وأقرب من لفظ الكتاب (سواء الألفاظ العقلية والصوتية واللغوية) .

٥ - الفهم من المعلم باللفظ أسهل من الكتاب بالخط .

٦ - يوجد في الكتاب أشياء تصد عن العلم ، وقد عدمت في تعلم المعلم (تصحيف ، غلط ، رداءة خط ، خلط مبادىء التعليم ، ذكر ألفاظ مصطلح عليها في تلك الصناعة . . الخ) وهذه كلها معوقة عن العلم . وقد استراح المتعلم عن تكلفها عند قراءته على المعلم »(١٤٨) .

بالإضافة إلى ذلك فإن العلماء الذين يرحل إليهم أصحاب فكر حي متجدد ، وليس بفكر صامت ميت مدفون في بطون الكتب وترجع إلى زمن غابر ، بعيد أو غير بعيد ، كما أنهم شراح ممتازون لكتب الأقدمين ، ويخلعون عليها جدة فكرية تنبض بروح الزمن الحاضر والمتقدم . ولهذا كان الأساتذة الرحلة مشهورين بفن الشرح والتعليق مما يمثل إضافات إبداعية في الفكر والعلم(١٤٩) .

- لقد رحل الغزالي م/ ٥٠٥هـ من طوس إلى جرجان ليستمع إلى دروس الإمام نصر الإسماعيلي ، وعلق عنه تعليقات مفيدة(١٥٠) .
- وكان الطلبة يرحلون إلى محمد بن أحمد بن طاهر المعروف بالخدب م/ ٥٨٠هـ تقريباً ، ليأخذوا عنه كتاب سيبويه في النحو وكان مشهوراً بشرحه(١٥١) .
- وكان الشيخ الطاوسي م/ ٦٠٠هـ بهمذان ، مشهوراً بتعاليقه ورحل إليه الطلبة ليأخذوها عنه(١٥٢) .

وكذلك فإن الرحلة كانت تحقق للرحالة وجهاً آخر من وجوه النمو العلمي ، حيث تتعدد مجالس العلم ، وتتنوع الفنون والمذاهب ، وتكثر المناظرات والمطارحات ، وتتحول المدينة إلى منتدى علمي وثقافي كبير ، والطالب يتنقل من محاضرة إلى أخرى ومن مجلس إلى آخر ، ويفيد كالنحلة من رحيق العلم ، ويتمثله ، وقد يخرجه فيما بعد عسلاً فكرياً . وهكذا تخصب ثقافته وتتسع ، ويأخذ من كل شيخ خير ما عنده علماً وأسلوباً .

في رحلته إلى مصر دهش المقدسي عندما وجد في جامع عمرو بالفسطاط فيما بين العشائين مائة وعشرة من المجالس العلمية تشتغل بكل أنواع العلوم . ثم يتحقق من انتشار هذه الظاهرة العلمية في كل مصر ، فيقول : « على هذا جميع المساجد »(١٥٣) مما جعل من المدينة مجتمع التعلم المفتوح ، وليس بعد ذلك ثراء علمي يقبس منه السائحون المتعلمون .

٣ - تلاقح الخبرات :
كانت العاصمة أو المدينة العلمية - كما بينا - سوقاً ثقافياً كبيرة ، يلتقي فيها طلاب من أقاليم متباعدة ، وثقافات متباينة ، وأحياناً من ديانات مختلفة ، وعند الشيخ الواحد يختلط العجمي بالعربي ، والمغربي بالشامي ، والمسلم بالذمي ، ويصبح هذا الاختلاط تلقيحاً ثقافياً مخصباً لكل فرد .

لقد رأى ابن الأعرابي ذات يوم في مجلسه ببغداد رجلين يتحادثان ، ولكل لهجته ، فقال لأحدهما : من أين أنت ؟ فقال من أسبيجاب (ببلاد الصين) ، وقال للآخر : من أين أنت ؟ ، فقال من الأندلس . فتعجب لهذا التلاقي بين المشرق والمغرب ، وأنشد(١٥٤) :

رفيقان شتى ألف الدهر بيننا وقد يلتقي الشتى فيأتلفان

ولو أنصف لاستبدل العلم بالدهر ، فذلك أصح في موضعه ، لأن العلم هو الذي ألف وجمع . وفعلاً كان الطلبة يتعلمون ويسكنون في جماعات لها ذاتية بارزة في المجتمعات الإسلامية . وهي جماعات لها بنية عضوية متفاعلة يتبادل أفرادها فيما بينهم عوامل التأثير والتأثر على صعيد العادات والمعارف والخبرات .

كان الطلبة في مجلس العلامة محمد بن زكريا الرازي يتعجبون من زميل صيني يتعلم معهم ويتميز بخبرة فريدة وغريبة في ذلك العصر : لقد كان الرازي يملي عل تلامذته كتب جالينوس الستة عشر ، فكان هذا الطالب الصيني يكتب أسرع مما يتكلمون ويسبقهم ، ولم يصدقوه إلا عند المعارضة (مراجعة المكتوب إلملي) ، شارحاً سر ذلك بقوله : إن لنا كتابة تعرف بالمجموع (الاختزال في لغتنا الحديثة) ، نكتب الشيء الكثير في المدة اليسيرة ، وإن شئنا نقلناه إلى المتعارف المبسوط » . وقد وضح لهم أن فن الاختزال يتطلب علمه واستخدامه عشرين سنة أو أكثر منها(١٥٥) .

ولقد كان من الأوربيين أفراد وفدوا للتعلم في كبريات المدن العربية كطليطلة وقرطبة وبغداد . وكانوا يعيشون ويتعاملون مع زملائهم من العرب والمسلمين ، فيحدث احتكاك ثقافي واسع النطاق عميق الأثر على النحو الذي يحدث اليوم عندما يسافر الشباب للتعلم في بيئات وبلاد أجنبية ويتأثرون كثيراً بثقافاتها ، ناقلين إليها كذلك بعض العناصر من ثقافاتها الوطنية أو الأهلية .

وفي بعض الحالات كان الحضور الأوربي في مدن العلم العربية حضوراً مكثفاً وليس رمزياً . وتقدر إحدى الدراسات عدد أفراد البعثات الأوربية الذين وفدوا من مقاطعات أسبانيا وألمانيا وفرنسا إلى الأندلس في عام ٢١٣هـ بحوالي سبعمائة طالب وطالبة(١٥٦) .

وفي نظامية بغداد كان الطلبة مأخوذين بمنظر راهب أوربي شهير « ريكولدو رامونتسكروتشي » جاء مع زملاء للدراسة يتعلمون العربية ويدرسون القرآن ، وقد طاف هذا الراهب بمدن سوريا والعراق وفارس في القرن السابع من الهجرة واختلط بطلاب وشيوخ كثيرين ، وأثنى على حضارة المسلمين وحسن ضيافتهم وتسامحهم حيث سمحوا له ولرفاقه بالحديث عن المسيح والمسيحية في عقر بيتهم(١٥٧) .

إن هذا التجمع الطلابي لعناصر من ثقافات محلية أو قومية مختلفة قد ساعد على تكوين صداقات وعلاقات أكدتها الرسائل المتبادلة بين الشيوخ يذكر فيها بعضهم بعضاً بأيام التلمذة وزمان الصحبة .

٤ - تدعيم الوحدة الثقافية :

كان التلاقح الثقافي يزامله من جانب آخر تشرب ثقافي ، حيث كانت الرحلة تحمل أفراداً من ثقافات نوعية محلية مختلفة ، وتصل بهم إلى مصادر

أساسية يستقون منها مقومات عامة مشتركة دينية ولغوية وعلمية أسهمت كلها في نسج مشاعر الوحدة الإسلامية التي ترتفع فوق الحدود الإدارية والتخوم السياسية التي تحكمها أو تتحكم فيها سلطات زمنية متنافسة أو متعاونة .

وكـان العلماء وليس السلاطين هم صناع هذه الوحدة ، ولقد عرف عن بعضهم أنهم « طبقوا الأرض بالتلامذة »(١٥٨) وكل منهم نسخة ثقافية تكرر إلى حد ما شخصية الشيخ في علمه وفكره ، وهكذا تشابكت الأقطار الإسلامية في نسيج ثقافي واحد على الرغم من غياب وسائل الإعلام التي جعلت من عالم اليوم قرية كبيرة نسكن جميعاً فيها .

وإذا كانت السياسة قد فرقت الأمة الإسلامية فإن العلم كان يجمع بينها ، ولم يعـترف العلماء بالحـدود الفـاصلة ، بل تزاوروا وتكـاتبوا على البعد ، وقرأ بعضهم لبعض ، ورد بعضهم على بعض ، وسـاحوا في كل أرض عاملين أو ناشرين للعلم حيث يجد الواحد منهم في كل مكان مسجداً مفتوحاً للصلاة ، وحلقة تعليمية تقام به ، ولغة عربية يتفاهم بها ، وزاوية أو مدرسة يسكن فيها ، وبيمارستانا يعالجه ، وإخوانا يرحبون به ، وطلاباً يلتفون من حوله :

٥ - نشـر الأفكـار الجـديدة :

كانت مدن الثقافة جاذبة لطلاب العلم ، وهؤلاء ، كما أشرنا ، كانوا رسل الثاقفة وناشري المعرفة : يأخذون من مصادر متقدمة ثم يعودون إلى مواطنهم حاملين للأفكار الجديدة ، وكل تبعاً لإيديولوجيته أو مذهبيته ، يعمل في دائرة ثقافية ينشط فيها بين الجماهير كما تنشط الخمائر في كتل العجين ، وهكذا كانت تروج الأفكار ، ويكثر الأتباع .

وخير مثال ما نجده في انتشار الفكر المعتزلي في الأندلس بواسطة طلاب علم رحلوا من المغرب إلى المشرق ثم عادوا يطرحون قضايا الاعتزال ، ويجمعون من حولها الأنصار والأتباع .

فخليل بن عبد الملك بن كليب رجع من رحلته المشرقية إلى بلده قرطبة وأخذ يتحدث فيها عن استقلال الإرادة وحرية الإنسان في أفعاله ، ورفض مبدأ الجبرية .

ومثله ابن السمنة م/٣١٥هـ ، فإنه لما عاد من رحلته بالشرق ، نشط في تكوين مجموعة طلابية مؤمنة بمبادىء الاعتزال . وقد امتدحه صاعد الطليطلي لسعة ثقافته وغزارة ما جناه من رحلته(١٥٩) .

ونجد في عصرنا الحاضر مثالاً مشابهاً لرحلات الطلبة الأفارقة والآسيويين الذين يأتون من بلاد بعيدة وافدين إلى جامعة الأزهر بالقاهرة ، ويقضون بها سنوات يحصلون فيها قدراً كبيراً من العلوم الدينية ، ثم ينقلبون إلى أهليهم واعظين ومدرسين وناشرين للمفاهيم الدينية الصحيحة .

وفي اتجاه معاكس نجد طلاباً عرباً أو مسلمين يذهبون في بعثات دراسية إلى الخارج في أوربا الغربية أو الشرقية أو في أمريكا الشمالية ثم يعودون حاملين لمبادىء ومذاهب فكرية يسارية أو ليبرالية أو علمانية يتعصبون لها ، ويدافعون عنها ، ويجاهدون لنشرها .

٦ - الرحلة تكريس للأهلية :

في عصور الحضارة والازدهار كانت الرحلة وبالذات عند الأندلسيين شرطاً لازماً للتصدر العلمي(١٦٠) لأنها تعني اعترافاً بأهلية الشيخ المتصدر ، وتتعاظم هذه الأهلية بغزارة مشيخته والتي تثبت اتصاله بعدد ضخم من العلماء في الأمصار المختلفة ، أخذ عنهم علومهم وفنونهم وأساليب بحثهم . ويكون التأكيد إذا أبرز للناس والمتحلقين من حوله أصوله التي سجل فيها دروس شيوخه ، وإذا قدم كذلك إجازات كثيرة حصل عليها منهم ، وإذا رجع من رحلته بحصيلة مادية من الكتب القيمة التي درسها .

لقد ذكر المؤرخون في التراجم باعتزاز أن ابن منده م/٣٩٥هـ « لما رجع من رحلته حملت كتبه على عدة أحمال حتى قيل إنها كانت أربعين حملاً »(١٦١).

٧ - **الرحلة تنمية علمية مستمرة :**

لم يكن كل الرحالة طلاباً متعلمين هدفهم تكوين أنفسهم لهدف ثقافي أو مهني ، وإنما كان هناك علماء كبار أنهوا مرحلة تكوينهم العلمي الذي أهلهم لممارسة الوظائف ، ورغبوا في القيام بنوع آخر من الرحلة وقصدهم بها لقاء زملاء أفاضل مشهورين في بلادهم ، ولهم سمعة طيبة في تخصصاتهم ، ويحصل كل منهم ما عند الآخر من علم حرم منه ، ومن ثم يكون تبادل الإجازات فيما بينهم .

- فابن جابر الوادي آشي م/٧٤٩هـ في رحلته العلمية تبادل العلم والإجازة مع عدد من الشيوخ الزملاء كالمزى والعمري وابن عبد النور الحلبي والذهبي وكثيراً ما يردد في عباراته : « قرأت عليه وقرأ عليّ - أخذت عنه وأخذ عني - وأجزته »(١٦٢).
- والفيروز أبادي م/٨١٧هـ ، بعد أن عمل معيداً عند الشرف عبد الله ابن بكتاش المدرس بنظامية بغداد ، يقوم برحلة علمية في عدد من الأمصار الإسلامية بالمشرق ، ويحصل فيها مزيداً من العلوم ، ويلتقي بأساتذة أفاضل في كل مصر ، يفيدهم ويفيد منهم ، ويدرس لمريديه من الطلاب العلم(١٦٣).

ولم يكن العلماء يرون بأسا في أن يتعلموا على أيدي زملائهم أو حتى طلبتهم ما يشعرون أنهم بحاجة إليه ، فالتعلم من المهد إلى اللحد كان مسلكاً وظيفياً للنمو العلمي المتجدد . عندما صحب الحميدي الشافعي (وكان تلميذاً له) في رحلته من مكة إلى مصر كان يأخذ منه المسائل ويعطيه الحديث(١٦٤). وكثيراً ما سمعنا عن تواضع العلماء في التعلم ، وكل يقول عن زميله : « أتعلم منه أكثر مما يتعلم منى »(١٦٥).

٨ - الرحلة سياحة ثقافية :

كانت الـرحلة عنـد بعضهم سياحة ثقافية تقف بالرحالة على علم مباشر بأحوال المجتمعات وأساليب حياتها ومستويات ثقافتها وطبيعة بلادها وأشكال نظمها وغرائب الحوادث فيها . وقد سجل هؤلاء الرحالة في كتبهم كل ما شاهدوه ووجدوه جديراً بالتسجيل ، وهكذا خرجت كتب الرحلات وكانت وثائق تاريخية وشواهد صادقة على العصور التي تكلمت عنها .

من هؤلاء المقـدسي ، والعبـدري ، وابن بطوطـة والتجـاني وغـيرهم كثيرون(١٦٦) . ولم يكن هناك ما يمنع أمثال هؤلاء من تحقيق أهداف أخرى تجاوز التـأريخ الاجتـماعي ، كالمتعـة السياحية ، والتعرف على بلاد جديدة ، واكتسـاب علوم والإجازة فيها شأنهم في ذلك شأن الطلاب المتعلمين ، فكل واحد من هؤلاء الذين ذكرناهم تحلقوا في المجالس ، واستمعوا إلى الشيوخ ، وأخـذوا إجازات منهم . يذكر المقدسي في مقدمة كتابة « أحسن التقاسيم » : « وما تم لي جمعه إلا بعد جولاني في البلدان ، ودخولي أقاليم الإسلام ، ولقائي العلماء ، وخدمتي الملوك ، ومجالستي القضاة ، وذرسي على الفقهاء ، واختلافي إلى الأدبـاء والقـراء ، وكتبـة الحديث ، ومخالطة الزهاد والمتصوفين ، وحضور مجالس القصاص والمذكرين ، مع لزوم التجارة في كل بلد ، والمعاشرة مع كل أحـد ، والتفطن في هذه الأسباب بفهم قوي حتى عرفتها»(١٦٧) . . وهكذا تصبح الرحلة متعددة الأغراض . وفي ذلك يقول الطهطاوي :

« والسياحة أمر عظيم في تكميل النفس ، لأنه (السائح الرحالة) يلقي أفاضل مختلفين ، فيستفيد من كل واحد فائدة مخصوصة ، وقد يلقى الأكابر من الناس فيستحقر نفسه في مقابلتهم ، وقد يصل إلى المدارس الكبيرة فينتفع بها ، وقـد يشـاهد اختلاف أحوال أهل الدنيا بسبب ما خلق الله في كل طرف من الأحـوال الخـاصة بهم ، فتقوى معرفته . فالرحلة إلى العلماء ، والانتقال عن

الأوطان في طلب العلوم واكتساب الفضائل والفوائد هي أمر واجب أو مستحب » وقد قيل(١٦٨) :

تغرب عن الأوطان في طلب العلى   وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفرج هم ، واكتساب معيشة   وعلم ، وآداب ، وصحبة ماجد

هل انتهت الرحلة ؟

لم تنته الرحلة تماماً ، فهي موجودة بشكل أو بأخر ، لكنها تبدلت في كثير من تقاليدها التراثية . فالرحلة العصرية رحلة وقافة ، أي تقف بالدارس في مدينة مجاورة لموطنه ، أو في عاصمة ثقافية في وطنه . . واختفت الرحلة الطوافة التي كان يتنقل فيها الدارس من مدينة إلى أخرى في جنبات كثيرة متباعدة . وقد ساعد على ذلك انتشار التعليم ، وزرع مؤسساته في كل أرض يقيم عليها بشر ، ووجود جامعات إقليمية ، وطوفان الرسائل الإعلامية التي تغذي الجماهير بألوان ثقافية مختلفة .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، فإن التعلم لم يعد مسألة فردية تتوقف على رغبة المتعلم وحريته الشخصية ، وقدرته المالية أو تضحيته الذاتية . لقد أصبح مسألة قومية تهتم بها الدولة ، وتنظم سياسته ، وتخطط مسالكه ، وتضبط عناصره ، وتشرف على تسييره ، وتوجه المعلمين والمتعلمين على السواء ، ومن ثم فقد خضع كل شيء في التعليم لنظام عام محكم ، مما قضى على ظاهرة الرحلة الطوافة لسائحين راغبين في التعلم .

ومع ذلك فهناك نوع مشابه للرحلة الطوافة ، حيث يقوم الشباب المتعلم بالرحلة إلى خارج الوطن لاكتساب مزيد من العلم والخبرة في تخصصات دقيقة أو جديدة غير متاحة في بلادهم . فالعالم في عصرنا الحاضر انقسم في شماله وجنوبه ، أو في غربه وشرقه : القسم الأول يمثل الحضارة التي تشهد تقدمها

علمياً وتكنولوجيا مذهلا ، مما جعل منها مناطق جذب لطلاب البعثات العلمية من دول القسم الثاني . وإليها أيضاً يسافر علماء للقيام بزيارات علمية أو لحضور برامج تدريبية أو مؤتمرات وندوات دراسية . كما تشهد دول العالم متقدمة ونامية نوعاً آخر من الرحلة السياحية .

وهذه الرحلة العصرية تخففت كثيراً من أسباب العناء الذي أثقل أسلافنا من الطلبة الرحالة ، فالرحلة لم تعد مشياً على الأقدام ، ولا سفراً على ظهور الجمال ، ولا ركوباً في عربات تجرها الخيول ، وتتعاقب عليها الأيام والشهور ، لقد أصبحت متعة سياحية ، يقوم بها مبتعثون أو موفدون لهم منح دراسية ، أو رواتب شهرية ، أو مكافآت سخية ، أو مصادر مالية غنية ، ويسافرون بطائرات نفاثة أو ببواخر فاخرة ، وتوفر لهم في بيئات الدراسة كل الوسائل المريحة .

وإننا لنأسف أن عالمنا العربي لم يعد كما كان محط الرحال العلمية ، لقد دار الزمن دورته ، وانقلب به الحال مع دول العالم الثالث ، وخرج منه الرحالة بعد أن كانوا إليه يفدون . فهل يصحو عالمنا العربي الإسلامي صحوته الكبرى ، ويعيد أيام مجده الحضاري ويصنع بالعلم والدين حياة إنسانية طيبة تسعد هذه البشرية المأزومة ؟!

المراجع والتعليقات الهامشية

١ - كانت أترووريا منطقة في إيطاليا الوسطى ، وهي حالياً منطقة توسكانا . وأصل سكانها الأتروسكيين من آسيا الصغرى ، حملوا إلى إيطاليا مهارتهم الفنية في صناعة المعدنيات ، وكانت لهم اثنتا عشرة جمهورية في القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وقد تأسست على أنقاضها دولة الرومان .

انظر - المنجد في اللغة والأعلام ، بيروت ، دار المشرق ، ط - ٢٠ ، ١٩٦٩ (المنجد في الأعلام ، ص١٢) .

٢ - الموسوعة الثقافية (بإشراف د. حسين سعيد) ، القاهرة ، دار المعرفة ١٩٧٢ ، ص٤٠٣ .

٣ - د. نعمات أحمد فؤاد ، التراث والحضارة (كتاب الهلال) ، القاهرة ، نوفمبر ١٩٨٤ ، ص ص٥٣ - ٥٤ .

٤ - جيمس هنري برستد ، انتصار الحضارة ، تاريخ الشرق القديم (مترجم) ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٩ ، ص ص١١٧-١٢١ .

٥ - روجيه غارودي ، حوار الحضارات (ترجمة د. عادل العوا) ، بيروت ، منشورات عويدات ، ط-١ ، ١٩٧٨ ، ص ص ١٩-٢٢ .

٦ - أبو الحسن محمد بن يوسف العامري النيشابوري ، الأمد على الأبد (صححه وقدم له أورث ك .روس) بيروت ، دار الكندي ، ١٣٩٩هـ ، ص٧١ .

٧ - ابن النديم ، كتاب الفهرست ، ليبزج ، طبعة Verlagvon F.C.W. Vogel ١٨٧١ ، ص١٥ .

٨ - أرسطوطاليس ، السياسة (ترجمة أحمد لطفي السيد) ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ ، ص٢٦٣ .

٩ - ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م - ٤ ، بيروت ، دار صادر ، (د.ت) ، ص٨١ .

١٠ - قال الأسلاف من المسلمين : بالعلم ثبات الدين والدنيا - لابقاء للإسلام إلا بالعلم .

انظر - الأصبهاني ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، م-٣ ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ط-٢ ، ١٩٦٧ ، ص٣٦٩ .

الزرنوجي ، تعليم المتعلم طريق التعلم ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس ، تحت رقم ٢٣١٢ ، ورقة ٩ .

١١ - ابن مفلح ، الآداب الشرعية والمنح المرعية ، ج-٢ ، بيروت ، دار العلم للجميع ، ١٩٧٢ ، ص٣٦ .

١٢ - رفاعة رافع الطهطاوي ، المرشد الأمين للبنات والبنين ، في محمد عمارة ، الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي ، ج-٢ بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣ ، ص٧١٦ .

يقول الطهطاوي : « من لم يجد معلماً يعلمه في بلده أو وطنه ما يحتاج إليه من أمر دينه ومعاشه ، فليرحل وجوباً في الواجب وندباً في المندوب اقتداء بالسلف الصالح » .

١٣ - عن رسول الله (ﷺ) أنه قال : « من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع • من سلك طريقاً يبتغى به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع » .
محمد بن علان الصديقي ، **دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين** ، ج-٤ ، القاهرة ، الحلبي ، ١٩٧١ ، ص ص ١٨٥-١٨٧ .

١٤ - الشوكاني ، **الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة** (تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني) ، جدة ، ورثة الشيخ محمد نصيف بالقاهرة ، ١٣٨٠هـ (صورة عنها ببيروت ، ط - ٢ ، ١٣٩٢هـ) ، ص٢٨٥ .

١٥ - روى ابن عساكر عن الرسول (ﷺ) قوله : « العلم ضالة المؤمن حيث وجده أخذه » إسماعيل بن محمد العجلوني الجراجي ، **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس** ، ج-٢ ، القاهرة ، مكتبة القدس ، ١٥٣١هـ ، ص ٦٨ .

١٦ - أبو زرعة ، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي** ، ج - ١ ، (تحقيق شكر الله القوجاني) ، د.ت ، ص ٣١٢ .

١٧ - محمد بن علان الصديقي ، **مرجع سابق** ، ج-٤ ، ص١٢١ .

١٨ - د. علي حسن الخربوطلي ، **الحضارة العربية الإسلامية** ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، د.ت ، ص٣٣٣ .

١٩ - الذهبي ، **تذكرة الحفاظ** ، ج-١ ، بيروت ، دار الفكر العربي ، د.ت (عن نسخة قديمة ، طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن ، ١٩٥٥م - ١٣٧٥هـ) ، ص١٣ .

٢٠ - ابن العماد الحنبلي ، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ، ج - ٢ ، بيروت ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، (د.ت) ، ص١٠ .

٢١ - ابن مفلح ، **مرجع سابق** ، ج - ١ ، ص ٤٨٦ « السائحون (في عرف المسلمين) هم طلبة الحديث » .

٢٢ - أبو زرعة ، **مرجع سابق** ، ص ٣٤٤ .

٢٣ - المرجع السابق .

٢٤ - رفاعة رافع الطهطاوي ، **مرجع سابق** ، ص ص ٧١٦ - ٧١٧ .

٢٥ - أبو هلال العسكري ، **الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه** ، (تحقيق د. مروان قباني) ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٩٨٦م ، ص٦١ .

٢٦ - أبو الفداء (ابن كثير) ، **البداية والنهاية** ، ج - ٩ ، بيروت ، مكتبة المعارف ، ١٩٦٦ ، ص ص٢٤٤ - ٢٤٥ .

٢٧ - الذهبي ، **مرجع سابق** ، ج - ١ ، ص ١٠٢ .
٢٨ - المقرى ، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ، م - ٥ ، (تحقيق د. إحسان عباس) بيروت ، دار صادر ، (د.ت) ، ص ص٢٧٥ - ٢٧٦ - ولا شك أن هبوط أثمان الكتب ورواج نشرها قلل من أهمية الرحلة للقاء جلة الشيوخ أو الأفاضل من أصحابها المؤلفين لها . لقد حمل كتاب الحلية لأبي نعيم الأصبهاني م/ ٤٣٠هـ في حياته إلى نيسابور فاشتروه بأربعمائة دينار وهو سعر كان لا يقدر على دفعه إلا كبار الموسرين ، أما عامة المثقفين فلم يكن لهم من سبيل إلا قراءته في كبرى المكتبات الحافلة بأقيم الكتب وأغلاها .
٢٩ - الذهبي ، **مرجع سابق** ، ج - ٢ ، ص ١٠٣٤ .
٣٠ - ياقوت الرومي ، **إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب** ، المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء ، ج-٣ ، (نسخ وتصحيح د.س. مرجليوث) ، القاهرة ، مطبعة هندية ، ط - ٢ ، ١٩٢٣ ، ص٣٣ .
٣١ - ابن الأبارء ، **المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي** ، القاهرة ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ ، ص٤٩ .
٣٢ - تقي الدين التميمي ، **الطبقات السنية في تراجم الحنفية** ، ج - ١ (تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو) ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٩٨٠ ، ص ص ١٨٦ - ١٨٧ .
٣٣ - ابن العربي ، **أحكام القرآن** ، قسم أول (تحقيق علي محمد البجاوي) ، بيروت ، دار المعرفة ، ط -٣ (د.ت) ، ص٦ للمحقق .
٣٤ - ابن فرحون المالكي ، **الديباج المذهب في معرفة علماء أعيان المذهب** ، ج-١ ، (تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور) ، القاهرة ، دار التراث ، ١٩٧٢ ، ص ٢٤١ .

٣٥ - الشوكاني ، **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع** ، ج-٢ ، القاهرة ، نشر معروف عبد الله سندوه ، ١٣٤٨هـ ، ص ص ٢٤٩ - ٢٥١ .
٣٦ - الفيروز أبادي ، **البلغة في تاريخ أئمة اللغة** ، (تحقيق محمد المصري) ، دمشق ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٧٢ ، ص ص ٧-٩ من المقدمة للمحقق .
٣٧ - أبو الفداء (ابن كثير) ، مرجع سابق ، ج - ١١ ، ص ٢٥ .
٣٨ - أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي ، **كتاب المعرفة والتاريخ** ، م-١ ، (تحقيق د. أكرم ضياء العمري) ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط - ٢ ، ١٩٨١ ، ص١٢ للمحقق .
٣٩ - ابن الفرضي ، **تاريخ علماء الأندلس** ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ ، ص ص ٤٠٦ - ٤٠٨.
٤٠ - السبكي ، **طبقات الشافعية الكبرى** ، ج - ٣ ، القاهرة ، مكتبة الحلبي ، (عن مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٣٨ ، ص١٣٢ .

٤١ - ابن الفرضي ، **تاريخ علماء الأندلس** ، ج - ١ القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ ، ص ص ٤٠٦ - ٤٠٧ .
٤٢ - **المرجع السابق** ، ج - ٢ ، ص ص ١٩١ - ١٩٢ .
٤٣ - ابن الفرضي ، **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس** ، ج - ١ ، (نشر وتصحيح السيد عزت العطار الحسيني) ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص١٣٥ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .
٤٤ - ابن عساكر ، **تاريخ مدينة دمشق** ، م - ١ (تحقيق صلاح الدين المنجد) ، دمشق مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٩٥١ ، ص هـ للمحقق .
٤٥ - الشوكاني ، البدر الطالع ، **مرجع سابق** ، ج - ١ ، ص٤٠٤ .
٤٦ - **المرجع السابق** ، ج - ٢ ، ص ص ٢٨٨ - ٢٩١ .
٤٧ - Vayages D'Ibn Batoutah, Paris, L'limprimerie Imperiale, V.I., 1853, P. 25, 42, 340.
٤٨ - **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق** ، (نشر وتحقيق الحسن السائح) ، فاس ، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية ، ١٩٧٠ ، ص ص ١٥ - ١٨ .
٤٩ - الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، **مرجع سابق** ، ص ١٤٢٩ .
٥٠ - ابن خلكان ، **وفيات الأعيان** ، م - ٢ ، (تحقيق د. إحسان عباس) ، بيروت دار الثقافة ، ١٩٦٩ ، ص ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .
٥١ - الشوكاني ، البدر الطالع ، **مرجع سابق** ، ج - ٢ ، ص ص ٢٦٦ - ٢٦٩ .
٥٢ - السيوطي ، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** ، ج - ١ ، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم) ، القاهرة ، الحلبي ، ١٩٦٤ ، ص ص ٤٦ - ٤٧ .
٥٣ - **المرجع السابق** ، ج - ١ ، ص ص ٢٨ - ٢٩ .
٥٤ - السخاوي ، **الذيل على رفع الإصر ، أو بغية العلماء والرواة** ، (تحقيق د. جودة هلال ، محمد محمود صبح) ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ ، ص ١٤ من المقدمة .
٥٥ - نجم الدين الغزي ، **الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة** ، ج - ١ ، (تحقيق جبرائيل سليمان جبور) ، بيروت ، محمد أمين دمج وشركاه ، (د.ت) ، ص ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .
٥٦ - ابن حيان القرطبي ، **المقتبس من أنباء أهل الأندلس** (تحقيق وتقديم وتعليق د. محمود على مكي) ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٩٧١ ، ص ٢٢٦ وابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، **مرجع سابق** ، ص ص ٤٠٦ - ٤٠٨ .
٥٧ - ابن الجوزي ، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ، م - ٩ ، حيدر أباد الدكن ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٥٧هـ ، ص١٩٠ .
٥٨ - ياقوت الرومي ، **مرجع سابق** ، ج - ٣ ، ص ١٢٧ .

٥٩ - **أمالي الصدوق** ، (تقديم محمد مهدي السيد حسن الموسوي الخرساني) ، النجف ، المطبعة الحيديرية ، ١٩٧٠ ، ص٧ من المقدمة .

٦٠ - الشوكاني ، البدر الطالع ، **مرجع سابق** ، ج - ١ ، ص ص ٥٠٤ - ٥٠٥ .

٦١ - نجم الدين الغزي ، **مرجع سابق** ، ج - ١ ، ص ١٨ .

٦٢ - ابن الأبار ، **مرجع سابق** ، ص ٢٨٧ .

٦٣ - د. عمر فروخ ، **عبقرية العرب في العلم والفلسفة** ، بيروت ، ط-٣ ، ١٩٦٩ ، ص ٩٣ .

٦٤ - ابن الأبار ، **مرجع سابق** ، ص٤٩ .

٦٥ - الفسوي ، **مرجع سابق** ، ص ص ٧٦ - ١١٢ .

٦٦ - الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، **مرجع سابق** ، ص١٤٢٩ .

٦٧ - ابن الفرضي ، **مرجع سابق** ، ج - ٢ ، ص ص ١٩١ - ١٩٢ .

٦٨ - التنوخي ، **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة** ، ج - ٨ ، (تحقيق عبود الشالجي) بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٢ ، ص ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

٦٩ - ابن الفرضي ، **مرجع سابق** ، القسم الأول ، ص ٣٥٣ .

٧٠ - انظر - د. محمود قمبر ، **دراسات تراثية في التربية الإسلامية** ، ج - ٢ ، الدوحة ، دار الثقافة ، ١٩٨٧ ، ص ص ١٠٤ - ١٠٧ .

٧١ - **المرجع السابق** ، ص ١٠٦ .

٧٢ - أبو هلال العسكري ، **مرجع سابق** ، ص ٤٨ .

٧٣ - **المرجع السابق** ، ص ص ٤٨ - ٤٩ .

٧٤ - ياقوت الرومي ، **مرجع سابق** ، ج - ٥ ، ص ٨٠ .

٧٥ - **المرجع السابق** ، ج - ٣ ، ص ٨٧ .

٧٦ - أبو هلال العسكري ، **مرجع سابق** ، ص ص ٥٧ - ٥٩ .

٧٧ - انظر - الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، **مرجع سابق** ، ج - ٢ ، ص ١٣٢٥
وانظر كذلك أحمد بن علي الدلجي ، **الفلاكة والمفلوكون** ، القاهرة ، مطبعة الشعب ، ١٣٢٢هـ ، ص ص ٨٢ - ٨٣ .

٧٨ - **المرجع السابق** ، ص ٤٩ .

٧٩ - ابن الجوزي ، المنتظم ، **مرجع سابق** ، م - ٥ ، ص ١٥ .

٨٠ - **المرجع السابق** ، م - ٧ - ص ٦٢ .

٨١ - الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، **مرجع سابق** ، ج - ٢ ، ص٦٣٠ .

٨٢ - أحمد بن علي الدلجي ، **مرجع سابق** ، ص ص ٨١ - ٨٢ .

٨٣ - الذهبي ، تذكرة ، **مرجع سابق** ، ج - ٢ ، ص ١٣٢٥ .

٨٤ - الذهبي ، تذكرة ، مرجع سابق ، ج - ٢ ، ١٢٣ - وابن الجوزي ، المنتظم ، مرجع سابق ، م - ٦ ، ص ص ١٣٣ - ١٣٤ .
٨٥ - ابن الجوزي ، صيد الخاطر ، ج - ٢ ، (تحقيق ناجي الطنطاوي) ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٦٠ ، ص٣٣٠ .
٨٦ - المرجع السابق ، ص ٣٧٦ .
٨٧ - ابن الجوزي ، المنتظر ، مرجع سابق ، م - ٩ ، ص٧ .
٨٨ - أبو هلال العسكري ، مرجع سابق ، ص٦٢ .
٨٩ - أحمد مفتاح ، مفتاح الأفكار في النثر المختار ، القاهرة ، مطبعة جريدة الإسلام ، ١٣١٤هـ ، ص٣٨٨ .
٩٠ - الأبشيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، ج - ١ ، بيروت ، دار العلم للجميع ، ١٩٧٢ ، ص ٤٨٦ .
والزرنوجي نسب البيتين إلى الإمام علي بتصرف يسير. الزرنوجي، مرجع سابق، ص١٤ .

٩١ - أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل ، عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨١ ، ص١٠٢ .
٩٢ - ياقوت الرومي ، مرجع سابق ، ج - ٣ ، ص ٨٨ .
٩٣ - المقدسي ، البدء والتاريخ ، ج-١ ، بيروت ، مكتبة خياط ، (د.ت) ، ص ص ٤-٥ .
٩٤ - الشوكاني ، البدر الطالع ، مرجع سابق ، ج - ٢ ، ص ص١١٠ - ١١٢ .
٩٥ - المرجع السابق ، ص ص ١١٢ - ١١٣ .
٩٦ - المرجع السابق ، ج - ١ ، ص ص ٨٨ - ٩٢ .
٩٧ - المرجع السابق ، ج - ٢ ، ص ١١٥ .
٩٨ - المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ، مطبعة بريل ، ط - ٢ ، ١٩٠٦م ، ص ص ٦٥ - ٦٦ .
٩٩ - ابن الجوزي ، نقد العلم والعلماء أو تلبيس إبليس ، إدارة المطبعة المنيرية ، (د.ت) ، ص ١١٩ ، ص١٢٧ .
١٠٠ - ابن خلكان ، مرجع سابق ، م - ٢ ، ص ص ٣٩٧ - ٣٩٨ .
١٠١ - الزرنوجي ، مرجع سابق ، ص ١١ .
١٠٢ - بدر الدين بن جماعة ، مرجع سابق ، ص ص ١١٣ - ١١٥ .
١٠٣ - أبو هلال العسكري ، مرجع سابق ، ص ٤٩ .
١٠٤ - الدلجي ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ .
١٠٥ - ابن العماد الحنبلي ، مرجع سابق ، ج - ٢ ، ص ٢٦٢ .

١٠٦ - ابن الفرضي ، تاريخ العلم والرواة ، **مرجع سابق** ، القسم الأول ، ص٢٨ .
١٠٧ - **المرجع السابق** ، ص ص ٤٠٦ - ٤٠٨ .
١٠٨ - الخطيب البغدادي ، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام** ، م-٤ ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، (د.ت) ، ص٣١٤ .
١٠٩ - ياقوت الرومي ، **مرجع سابق** ، ج - ٣ ، ص١٢٧ .
١١٠ - ابن العماد الحنبلي ، **مرجع سابق** ، ج - ٣ ، ص ص ٣٤٩ - ٣٥٠ ، وابن خلكان ، مرجع سابق ، ٪ - ١ ، ص ص ١٩ - ٢٠ .
١١١ - ابن العماد الحنبلي ، **مرجع سابق** ، ج - ٤ ، ص ٦٢ .
١١٢ - ابن الجوزي ، **لفتة الكبد إلى نصيحة الولد** ، القاهرة ، المطبة السلفية ، ١٩٧٤ ، ص ص ٤٦ - ٤٧ .
١١٣ - ابن العماد الحنبلي ، مرجع سابق ، ج - ٤ ، ص ص ١٢٦ - ١٢٧ .
١١٤ - ابن خلكان ، **مرجع سابق** ، م - ٤ ، ص ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .
١١٥ - **المرجع السابق** ، م - ٣ ، ص ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .
١١٦ - **المرجع السابق** ، م - ٤ ، ص ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .
١١٧ - ابن تغري بردى ، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ، ج - ٧ ، القاهرة ، دار الكتب (طبعة مصورة عنها للمؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر) ، د.ت ، ص ٢٠٨ .
١١٨ - السيوطي ، بغية الوعاة ، **مرجع سابق** ، ج - ٢ ، ص ٣٧ .
١١٩ - الشوكاني ، البدر الطالع ، **مرجع سابق** ، ج - ٢ ، ص ص ٣٠٣ - ٣٠٥ .
١٢٠ - **المرجع السابق** ، ج - ١ ، ص ص ٣٨١ - ٣٨٢ .
١٢١ - **المرجع السابق** ، ج - ٢ ، ص ص ٢٥٧ - ٢٥٩ - وأبو زرعة الدمشقي ، مرجع سابق ، ص ١٨ .
١٢٢ - طاس كبرى زاده ، **الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية** ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٧٠ ، ص ٢٥٢ .
١٢٣ - نجم الدين الغزي ، **مرجع سابق** ، ج - ٣ ، ص ٥ .
١٢٤ - المحبي ، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر** ، ج - ٢ ، بيروت ، مكتبة خياط ، (د.ت) ، ص٤٤٤ .
١٢٥ - انظر دراستنا **عالم الطلبة** ، من نشر مركز البحوث التربوية بجامعة قطر ، الدوحة ، ١٩٨٨ ، ص .
١٢٦ - موسى بن عيسى البشري ، **مكنون الخزائن وعيون المعادن** ، ج - ١ ، مسقط ، وزارة التراث القومي والثقافة ، ١٩٨٢ ، ص١٢ .

١٢٧ - د. ناجي معروف ، علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي ، بغداد ، مطبعة الارشاد ، ١٩٧٣ ، ص٢٣١ .

١٢٨ - من طريف ما حدث في هذا الموضوع أن الغزالي كان قد رحل من طوس إلى جرجان وأخذ تعليقات مفيدة عن شيخه الإمام نصر الإسماعيلي . وفي أثناء رجوعه خرج عليه العيارون واستولوا على كل ما معه فاستحلفهم أن يردوا له تعليقته ، فما كان منهم إلا أن سلموا إليه مخلاته وفيها كتبه ، وكان فرحه بذلك كبيراً .

د. أحمد شلبي ، التربية الإسلامية : نظمها ، فلسفتها ، تاريخها ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط - ٦ ، ١٩٧٨ ، ص٣٧٦ .

١٢٩ - النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج - ١ ، دمشق ، المجمع العربي بدمشق ، ١٩٤٨ ، ص٤ .

١٣٠ - العلموي (عبد الباسط) ، مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس ، دمشق ، مطبوعات مديرية الآثار القديمة العامة ، ١٩٤٧ ، ص١٢٧ .

١٣١ - ابن الجوزي ، المنتظم ، مرجع سابق ، م - ٨ ، ص ص ١٣ - ١٤ .

١٣٢ - الأصبهاني ، مرجع سابق ، م - ٣ ، ص٣٦٦ .

١٣٣ - الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، مرجع سابق ، ج - ١ ، ص ١٩٧ ، ٣٤٨ .

١٣٤ - ابن جماعة ، مرجع سابق ، ص ٦٦ .

١٣٥ - ابن عماد الحنبلي ، مرجع سابق ، ج - ٢ ، ص ٢١٠ .

١٣٦ - السيوطي ، بغية الوعاة ، مرجع سابق ، ج - ٢ ، ص ص ١٢٠ - ١٢١ .

١٣٧ - ياقوت الرومي ، مرجع سابق ، ج - ٣ ، ص ص ٣٣ - ٣٤ .

١٣٨ - ابن الجوزي ، المنتظم ، مرجع سابق ، م - ١٠ ، ص ص ٧٩ - ٨٠ .

١٣٩ - ابن العماد الحنبلي ، مرجع سابق ، ج - ٤ ، ص ٣٤٧ .

١٤٠ - الشوكاني ، البدر الطالع ، مرجع سابق ، ج - ١ ، ص ٢٩ .

١٤١ - ظهير الدين البيهقي ، تاريخ حكماء الإسلام ، (نشر وتحقيق محمد كرد علي) دمشق ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، ١٩٤٦ ، ص ص ١٤٤ - ١٤٥ .

١٤٢ - السيوطي ، بغية الوعاة ، مرجع سابق ، ج - ١ ، ص ٥١٩ .

١٤٣ - الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج - ٣ ، (تحقيق عبد السلام هارون) ، بيروت دار الكتاب العربي ، ط - ٣ ، ١٩٦٩ ، ص ٣٦٨ .

١٤٤ - ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، بيروت ، دار الفكر ، (د.ت) ، ص ٥٤١ .

١٤٥ - انظر - محمد كرد علي - الإسلام والحضارة العربية ، ج - ١ ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ ، ص٤ .

١٤٦ - الشاطبي ، **الموافقات في أصول الشريعة** ، ج - ١ ، (خرجه عبد الله دراز) ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، (د.ت) ، ص ٩٦ .

١٤٧ - قال الشمني :

من يأخذ العلم عن شيخ مشافهة يكن من الزيغ والتصحيف في حرم
ومن يكن آخذا للعلم عن صحف فعلمه عند أهل العلم كالعدم

بدر الدين القرافي ، **توشيح الديباج وحلية الابتهاج** ، (تحقيق أحمد الشيتوي) ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٣ ، ص ٢٢٤ .

١٤٨ - ابن أبي أصيبعة ، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** ، بيروت ، منشورات دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٥ ، ص ص ٥٦٣ - ٥٦٤ .

١٤٩ - انظر د. محمود قمبر ، **مرجع سابق** ، ج - ٢ ، ص ص ١٩٠ - ١٩٣ .

١٥٠ - د. أحمد شلبي ، **مرجع سابق** ، ص ٣٧٦ .

والتعليقة كما يوضحها الطهراني هي كالحاشية (إلا أن التعليقة تختص بالعلوم العقلية والحاشية بغيرها) « وهي ما يكتب في أطراف الكتب من الزيادات والإلحاقات والشروح » .

١٥١ - الفيروز آبادي ، **مرجع سابق** ، ص ٢٠٦ .

١٥٢ - ابن خلكان ، **مرجع سابق** ، م - ٣ ، ص ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

١٥٣ - المقدسي ، **مرجع سابق** ، ص ٢٠٥ .

١٥٤ - ياقوت الرومي ، **مرجع سابق** ، ج - ٢ ، ص ص ٣٩٨ - ٣٩٩ .

١٥٥ - ابن النديم ، **الفهرست** ، طبعة ليبزج ، ١٨٧١ ، ص ص ١٦ - ١٧ .

١٥٦ - د. محمود أحمد الحفني ، **في أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية** ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ ، ص ص ٣٤ -٣٥ .

١٥٧ - اليساندرو بوزاني ، « الصورة الأوربية عن الحضارة العربية والاستجابة لهذه الصورة : عرض تاريخي وتفسير » في **العلاقات بين الحضارتين العربية والأوربية** ، وقائع ندوة همبورج ١١ - ١٦ ، إبريل ١٩٨٣ ، تونس ، الدار التونسية للنشر ، ص ٧٦ .

ولا ننسى أن البابا سلفستر الثاني هو تلميذ الثقافة العربية في طليطة وقرطبة ، لقد تعلم في الأندلس ورجع منها إلى بلاده في أوربا بعلم غزير .

١٥٨ - من هؤلاء أبو إسحاق الشيرازي م/٤٧٦هـ حيث خرَّج تلامذة انتشروا في معظم المدن العراقية والفارسية وما نزل بمدينة منها إلا وجد كبار المثقفين والعلماء بها من تلامذته ، وعندما يعلمون بوجوده يستقبلونه أو يشيعونه خارج المدينة بكل وفاء وحب وتقدير .

انظر - ابن الجوزي ، المنتظم ، **مرجع سابق** ، م - ٢٩ ، ص٧ ، وانظر كذلك ابن العماد الحنبلي ، **مرجع سابق** ، ج - ٣ ، ص ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

١٥٩ - ليفي بروفنسال ، الحضارة العربية في أسبانيا (ترجمة د. الطاهر أحمد مكي) ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٩ ، ص ١٧٣ .

١٦٠ - ابن حيان القرطبي ، مرجع سابق ، ص ٢٢٦ .

١٦١ - الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، مرجع سابق ، ج - ٢ ، ص ١٠٣٢ .

١٦٢ - ابن جابر الوادي آشي (شمس الدين محمد) برنامج ابن جابر الوادي آشي (تقديم وتحقيق د. محمود الحبيب الهيلة) ، مكة ، جامعة أم القرى ، ١٩٨١ ، ص١٩ ، ٨٣ ، ٩٧ .

١٦٣ - الفيروز آبادي ، مرجع سابق ، ص ص ٧ - ١٠ .

١٦٤ - بدر الدين بن جماعة ، مرجع سابق ، ص٢٩ .

١٦٥ - الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، مرجع سابق ، ج - ٢ ، ص ٤٢٨ .

١٦٦ - انظر - رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية ، (تحقيق محمد الفاسي) ، الرباط ، جامعة محمد الخامس ١٩٦٨ .

وكذلك - أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني ، رحلة التيجاني ، تونس ، المطبعة الرسمية (من منشورات كتابة الدولة للمعارف) ، ١٩٥٨ .

١٦٧ - القدسي ، أحسن التقاسيم ، مرجع سابق ، ص٢ .

١٦٨ - رفاعة الطهطاوي ، مرجع سابق ، ص ص ٧١٦ - ٧١٧ .